كرم نعمة

سلاح غير مرخص

دونالد ترامب قوة إعلامية بلا مسؤولية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سلاح غير مرخص

دونالد ترامب قوة إعلامية بلا مسؤولية

سلاح غير مرخص

دونالد ترامب قوة إعلامية بلا مسؤولية

كرم نعمة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى: أيار/مايو 2021 م - 1442 هـ

ردمك 978-614-01-3276-4

توزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **صلاح محمد**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

مقدمة

على مدار أربع سنوات مثّلَ الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب، درسا إعلاميا في غاية الأهمية، سواء في علاقته مع وسائل الإعلام، أو في كل ما يصدر عنه من تعليقات وتغريدات على مواقع التواصل. لأنه ببساطة يفهم السياسة بأنها التعريف الأمثل للإعلام.

لقد وصف الصحافة بـ «البذرة الشيطانية الفاسدة» وكان يعامل كل الأخبار التي لا تتوافق مع سياسته على أنها زيف مكشوف. كان لا يتردد في إهانة وطرد الصحافيين من مؤتمراته. مع ذلك كان يجد ملايين المتلهفين كل صباح لمتابعة تغريداته على تويتر.

مثّلَ ترامب على مدار فترته الرئاسية قوة إعلامية قد تفوق قوته السياسية، بغض النظر عن توجهها، وكان يستهدف في تغريداته التنكيل وإقصاء الآخر بكلمات تنطلق من سلاح غير مرخص. الأمر الذي دفع كبرى مواقع التواصل إلى إغلاق حساباته في وقت متأخر من دورته الرئاسية. ومثل ترامب في كل ذلك درسا مفتوحا وشيقا لوسائل الإعلام.

مقالات هذا الكتاب رافقت على مدار سنوات حكم الرئيس الأميركي دونالد ترامب وكل ما نتج عن علاقته السيئة مع

الصحافـة. رأيـت من المفيـد أن أجمعها مع إعادة تحريرها، بعد أن نشرت جميعها في زاويتي الأسبوعية بصحيفة العرب اللندنية. ربما تضيف شيئا مفيدا لمدونة ترامب الطويلة، والتي لا يبدو أنها على وشك الانتهاء وأن غادر البيت الأبيض.

المؤلف

إعلان مضر كالسجائر

إنه قوة إعلامية بلا شك بغض النظر عن طبيعة خطابه المزدري للآخر والقاذف للشتائم، حتى لو زعمت كبرى وسائل الإعلام بغير ذلك، فإنها لا يمكن أن تبقى متفرجة على اللعبة المشوقة والمتواصلة للمرشح الرئاسي آنذاك عن الحزب الجمهوري في الانتخابات الأميركية دونالد ترامب.

وسائل الإعلام الكبرى تشارك ترامب لعبته بطريقة أو بأخرى، سواء برفض ونقد انتهاكاته للقيم الأميركية، أو بتقديمه كنوع من الحل للأمة الأميركية.

شهرة ترامب في مواقع التواصل الاجتماعي وتلفزيون الواقع وثروته الشخصية، تجعلانه بحد ذاته قوة إعلامية، لذلك لم يجد رفض موقع بازفيد الأميركي عرض إعلانات من الدعاية الانتخابية له، بسبب أضرارها، التي شبّهها مدير الموقع بأضرار السجائر، لم يجد تأثيرا أكثر من تأثير تصريح الأمير الوليد بن طلال الذي اعتبر ترامب عارا على الولايات المتحدة، مع أنه يمتلك نفس قوة ثروته!

رفض الموقع الأميركي للإعلان المغري ماليا، جزء من اللعبة الإعلامية المشوقة، ليس بدلالة معنى الرفض، بقدر المال الذي يفسر تداعيات هذا الرفض وما يترتب عليه من فوائد، فقد

عمم جوناه بريتي مدير موقع بازفيد رسالة على الموظفين، أعلن فيهـا عـن رفضه لصفقة إعلانية من المرشـح دونالد ترامب «كان ذلـك قبـل فـوزه بالانتخابـات الرئاسـية الأميركية» تقـدّر بمليون و300 ألـف دولار أميركـي، معلـلا ذلك بالأضـرار المترتبة على الصفقة.

وشـبّه بريتـي حملـة ترامـب الدعائيـة بإعلانـات السـجائر، قائـلا «لـم نكـن نريـد إدارة ظهورنا للمـال الذي نحتاجـه، لكننا لا نبـث إعلانـات السـجائر، نظـرا لأضرارها علـى الصحة، ولن نقبـل إعلانـات ترامب للسـبب نفسـه بالضبط». وعـزا قراره إلى ما وصفه بالتأثير السـلبي على عمل موظفي الموقع، إضافةً إلى رسالته السلبيّة والعدائية تجاه أعراق وديانات بعينها، على رأسها الإسلام.

وسـائل الإعلام الأميركية تشـعر بما يمكن تسميته «الامتنان الداخلي» غير المعلن لمثل هذا المرشح الثري حتى وإن وصفها بـ«إعلام غير شريف»، فمشاكسته وعنصريته سوق رائحة تستقطب الجمهور في نهاية الأمر، وحتى الحديث الذي يشبّه بإطلاق نار بين المتحاورين على الشاشات وخلف المايكروفونات الإذاعية الرافضة له، هو إعلام رائج ورابح وإن تنازل عن القيم والحساسية العالية.

فالسـيد بريتـي بوصفـه إعلاميـا محترفـا، يـدرك أن ترامـب سـيجارة ضـارة، لكـن تدخينهـا يجلـب المنافع فـي نهاية الأمر، ومـن بيـن هذه المنافع تداعيـات رفض الإعلان الدعائي له على

الموقع، باعتباره منفعة وسط الضجيج الانتخابي وإن تخلى عن مليون و300 ألف دولار!

ترامب واصل معركته التي اعتبرت خاسرة آنذاك، لكنه ربح قبل أن يخسر في الانتخابات اللاحقة لحساب جو بايدن، مع وسائل الإعلام ومع هيلاري كلينتون حتى النهاية بوصفه منتصرا، لذلك تراه دائما يرد الجميل إلى معجبيه، ويعيد تغريد رسائل التأييد حتى من الحسابات التي كانت تعبر عن أيديولوجيات عنصرية.

مجموعة مراقبة وسائل الإعلام «ميديامايزر» أكدت «أن وسائل الإعلام الإخبارية في الولايات المتحدة تخصص تغطية لترامب أكثر من أي مرشح آخر، واستمرت هذه التغطية بعد أن صار رئيسا ومن ثم مرشحا مهزوما لولاية ثانية، سواء عبر الإنترنت، أو على شاشات التلفزيون، أو في الصحف، وظهوره في المناظرات التي استضافتها فوكس نيوز، وسي إن بي سي، وسي إن إن، وشبكة فوكس بيزنس، جميعها جذبت رقما قياسيا من الجماهير لتلك القنوات التلفزيونية». ووفقا لتحليل من الموقع الإلكتروني Vocativ، كانت كلمة ترامب أكثر الكلمات ذكرا في جميع التغريدات على تويتر والتعليقات على فيسبوك.

وسائل الإعلام القائمة تدرك أن جمهور ترامب على مواقع التواصل الاجتماعي يتجاوز متابعيها، وصل متابعيه على مواقع التواصل عشرات الملايين من المشتركين بين تويتر وفيسبوك وإنستغرام، قبل أن تحذف هذه الشركات حساباته. لذلك مجرد

تناوله كقصة إخبارية يعني أنها ستصل إلى مثل هذا الجمهور.

لـن يحتـاج المتابعون إلى الكثير من العناء لاكتشـاف تورط وسائل إعلام أميركية كبرى بما تسميه «عار ترامب»، إنها ترفضه بوصفه رجل الشتائم الأول في أميركا، العنصري، الكاره لحقوق المرأة، لكنها في النهاية تسوق له في لعبة الباب الدوار التي تدر عليها المال والجمهور.

دونالد ترامب وصل إلى البيت الأبيض من خلال استراتيجية يعتقد معظم الجمهوريين في نهاية المطاف أنها ستقضي عليهم، وستكون وسائل الإعلام حينها شريكا له، أو حسب تسمية هفين ويبر، وهو جمهوري مخضرم وعضو كونغرس متقاعد من ولاية مينيسوتا، «الرقصة الأخيرة على تيتانيك».

مناظرة كلينتون وترامب: الخداع كالواقع

مثلما يتطلب من الصحافي الاعتناء بلغته قبل أن يكون صحافيا، بات على المرشح للرئاسة الأميركية أن يكون كذلك أيضا، فالاعتناء باللغة أحد أهم الطرق الموصلة إلى البيت الأبيض، تضاف لها رباطة الجأش والثقة بالنفس واختيار توقيت المبادرة، وكلها صفات كلاسيكية يجب أن يمتلكها الصحافي، وبات على المرشح أن يضعها في أولويات حملته الانتخابية.

وتلك مهمة دأبت عليها وسائل الإعلام منذ أول مناظرة في ستينات القرن الماضي، وهذا ما اعترفت به هيلاري كلينتون في مناظرتها مع دونالد ترامب قبل خسارتها المدوية، بقولها إن الكلمات مهمة عند الترشح للرئاسة، ولن تكون بنفس أهميتها عندما يكون المرشح رئيسا.

كذلك ينصح خبراء الإعلام بمشاهدة المناظرة التلفزيونية بين المرشحين من دون صوت كأفضل طريقة للتركيز على ملامح المتناظرين لاكتشاف دلالة تعابير الوجه، إنها معادل جدير بالوفاء لدلالة الكلمات.

تقليد المناظرة التلفزيونية التي تسبق الانتخابات الرئاسية درج عليه الأميركيون منذ ستينات القرن الماضي، وتتسم

المناظـرة عـادة بالعاطفية وتجمع وسـائل الإعـلام على أهميتها من دون تراجع، لذلك جعلت منها قصة دائمة، تعيد التذكير بها حتى من دون مناسـبة، وليس من السـهولة أن ينسـى الأميركيون جملة رونالد ريغان وهو يسخر من صغر سن منافسه الديمقراطي آنذاك والتن ماندل، قائلا إنه لن يركز على كبر سنه ويستغل صغر سن منافسه وقلة خبرته!

المناظرة بين كلينتون وترامب التي كانت الأكثر مشاهدة في تاريخ الانتخابات الأميركية، تسمر لها نحو 84 مليون مشاهد على 13 قناة تلفزيونية، كما شاهدها الملايين عبر العالم، وصنعت منها وسائل الإعلام قصة متفرعة ومتشابكة ومتحركة، هي في حقيقة الأمر فعل صحافي بامتياز يدير لعبة سياسـية عندما يبدو الخداع كالواقع.

لذلك لم تنته بعد تسـعين دقيقة من الكلام أمام العدسـات، لأنها بدأت لحظة انتهائها بالنسبة إلى وسائل الإعلام.

ربمـا انتهـت بالنسـبة إلـى كلينتـون وترامـب، لذلـك اعتبر كل واحـد منهمـا أنـه الفائـز فيها، فكلينتون قالـت لمؤيديها «هل يساوركم شعور جيد الليلة؟ بالنسبة إليّ نعم. قدمنا مناظرة رائعة»، أمـا ترامـب فأعلـن فوزه للصحافيين في موقـع المناظرة، مع أنه اتهـم فـي مقابلة مع قنـاة فوكس نيوز التلفزيونية، مدير المناظرة، لسـتر هولت، بالتشـدد معه أكثر من هيلاري، ووصل الأمر حد انتقاد الميكروفون بقوله «أعطوني ميكروفونا معيبا، هل كان ذلك عن قصد؟».

وفي استطلاع لوكالة رويترز، وجد أن نحو نصف الناخبين المحتملين في الولايات المتحدة يتطلعون للمناظرة لمساعدتهم في اختيار أحد المرشحين بصفة نهائية.

شبكة «سي إن إن» الإخبارية كانت قد أعدت لتداعيات المناظرة مسبقا بالتعاون مع مؤسسة أبحاث الرأي «أو آر سي» لإجراء استطلاع بين الناخبين الأميركيين الذين قالوا إن «كلينتون عبرت عن رأيها بوضوح أكثر من ترامب، وكان إدراكها للقضايا التي نُوقشت خلال المناظرة أفضل بفارق كبير»، بينما لم تجد هيئة التحرير في صحيفة نيويورك تايمز المناظرة مثيرة، وقالت «عندما يكون مرشح واحد فقط جادا، والثاني متسلطا فارغا، فإن المناظرة تفقد معناها».

لكن هذا المعنى المفقود بالنسبة إلى أهم الصحف الأميركية، بدا في الجانب الآخر من الأرض كوميديا سوداء أكثر مما ينبغي عندما أعلن متحدث باسم حركة طالبان في أفغانستان، لقناة «أن بي سي» إن قادة الحركة تابعوا المناظرة، عسى أن تكون أفغانستان موضوعا من مواضيع النقاش بين المرشحين!

الصحف الشعبية صنعت قصتها «الرخيصة» أيضا من المناظرة، عندما أقحمت ملكة جمال الكون السابقة اليشا ماتشادو، شخصية ثالثة بين ترامب وكلينتون التي أوردتها المرشحة الديمقراطية مثالا على فظاظة منافسها الجمهوري في تعاطيه مع النساء.

قصة مغرية بالنسبة إلى مثل هذه الصحف أن تكشف كلينتون

أن ترامب كان يطلق على هذه الحسناء الفنزويلية «اسم «خنزيرة» ثم «خادمة» لأنها من أصول أميركية لاتينية.

أما وكالة الصحافة الألمانية فاستعانت بكريستوف شفاب خبير مهارات التواصل، ليحلل ما جرى وفقا لمهارات المتناظرين، فاعتبر أن كلينتون عرضت نفسها بشكل أنثوي ومراع لشعور الآخرين ومتفهم أيضا، فيما كان منافسها ترامب عنيدا للغاية، من دون أن يستطيع زحزحتها عن توازنها.

وقال «إن ترامب خسر بصفة خاصة عندما صاح كطفل عنيد: لدي الأجواء الأفضل ولدي القوة على أن أصبح الفائز هنا».

لا تلعب وسائل الإعلام الأميركية مع خيار الناخبين، بقدر ما تصنع قصتها التي تجني منها الأموال، لذلك تبدو أكثر من سعيدة ومحتفلة، وإن كان يبدو خيار الناخبين حزينا مع ترامب ولا يكون حلا مع كلينتون، فإن ريك تايلر، الذي عمل كبير مساعدي تيد كروز، قد تحسس الخطر المحدق بترامب إذا حرك بندول الساعة في الاتجاه الآخر.

غير أن الأمر لا يبدو كذلك لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو: كلينتون أم ترامب؟ لا يهم.. كلاهما سيدعمان إسرائيل!

الإعلام الخاسر الساخط

بعد ما يبدو وكأنه أسوأ الانتخابات الرئاسية الأميركية طبعا ومزاجا على الإطلاق، ثمة أشـياء سـخيفة هزت العالم وجعلت منـه مكانـا مخيفـا ومربكا في الوقت الحالـي، من التصويت إلى بريكست حتى انتخاب ترامب.

يُصـرّ بعضهـم علـى أن الذيـن صوّتوا لخـروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، فقط لهم الحق في تفسير معنى النتيجة، وهذا التفسير يضع بلا شك وسائل الإعلام البريطانية في خانة الخاسر لا محالة، لأن تفسير البقاء الذي تبنته وسائل الإعلام وفشل، لم يعد يقنع الناس.

مثـل تلـك الأشـياء كانـت قد حدثت في العالـم العربي منذ احتلال العراق عام 2003 من دون أن نشعر بسخافتها إلا بعد أن سقطنا في هوّة «الربيع العربي».

وبالنسـبة للكثيريـن فـي العالم، إن الـذي حدث وآخره فوز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسـية الأميركية، هو شـكل من أشكال الانتقام من وسائل الإعلام، وبالنسبة إلى آخرين هو فشل المدارس الإعلامية في صناعة الرأي والتأثير على مزاج الجمهور.

لقد بدأت كبرى وسائل الإعلام في العالم منذ وتحت إدارة كبار الخبراء في رغبات الجمهور والمنظرين وواضعي الخطط،

بدأت تلعب دور الخاسـر السـاخط قبل أن تخسـر فعلا هيلاري كلينتون، بوصفها خيارا عقلانيا وواقعيا وأمينا.

لكـن الخبراء أنفسـهم غيـر قادرين على الدفاع عن خيارهم العقلاني هذا، أو على الأقل توقع حدوث الخيار الآخر، عندما بدأ الناخبون ينقلبون على أنفسهم بشراسة، بينما وسائل الإعلام احتفظـت بأسـطوانتها القديمـة، مـن دون أن تعير انتباها إلى تغير الأمزجـة لـدى النـاس الذيـن لـم يعودوا يسـتمعون إلـى العزف الإعلامـي المكـرر والمكشـوف. الجمهـور صنـع معزوفتـه عبر وسـائل التواصل الاجتماعي، ولم يعد يثق بما يسـمى موضوعية وسـائل الإعلام، التي باتت مطالبة اليوم بالاعتراف بأنها عاجزة عن التأثير على رغبات وآراء الناس.

صحيفة مثل فاينانشيال تايمز كانت تترقب قبل خمسين يوما من التصويت ما أسمته النهاية الوشيكة التي تمكن دونالد ترامب مـن تحقيـق أكبـر مصدر للإزعاج في التاريخ الأميركي، من دون أن تفقد اطمئنانها على فوز كلينتون!

بينما شبه الكاتب إدوارد لوس نوعين من التهديد سواء بفوز ترامب أو هيلاري، واحد حيث دب يقتحم مقصورتك، والآخر حيث النمل الأبيض يأكلها من الداخل، لكنه لم يلتفت إلى دوره كصحافي في طبيعة ذلك التهديد!

صحافي على درجة من الأهمية مثل سايمون سياما كتب من واشـنطن وكأنه قرأ المزاج الأميركي العام بيقين، جملا مثل «أيا كان حجم الانتصار الذي سـتحققه كلينتون، وما الذي يمكن أن

تفعله الرئيسة لنقل أميركا مرة أخرى بعيدا عن حافة الخلاف، فإن ما يدل على قوة صنع الخرافة في حملة ترامب هو أن تعويذتها الختامية هي التزوير والتلاعب في الانتخابات من خلال الاحتيال على الناخبين» حصل هذا التوقع لاحقا عندما انهزم ترامب أمام بايدن، فأعتبر النتيجة مزورة.

بينمـا زميلـه جون أوثرز مـن لندن يكتب «دونالد ترامب لن يكون الرئيس، وحتى هو سيضطر إلى قبول ذلك».

لكـن الجمهـور علّـم وسـائل الإعـلام وكتابهـا المحترفين «الـدرس الترامبـي» ليمنحهـا الفرصـة الأهـم في زمـن التواصل الاجتماعي لإعادة النظر في المحتوى الواثق من نفسـه أكثر مما ينبغي.

كاتبـة فـي صحيفـة الغارديـان اعترفت بشـكل متأخر صباح يـوم الصدمـة، بـأن كل اسـتطلاعات الرأي كانـت خاطئة، «لأننا مهووسـون بتوقع الآراء بدلا من الاسـتماع إلى أصحاب الآراء أنفسهم».

ونشرت لاحقا وكالة أسوشيتد برس الأميركية تقريرا إخباريا مفاده أن التنافس الحاد الذي طبع السـباق الرئاسـي نحو البيت الأبيض، أشبه ما يكون بمادة تلفزيونية مشوقة، ومثل درسا قاسيا للصحافيين لكي يتفادوا القفز إلى النتائج.

حتى الذين توقعوا ورغبوا بفوز ترامب لم يستطيعوا التخلص مـن الضغـط الإعلامـي المسـبق لأنه أوحـى للعالم بـأن النتيجة حسـمت فـي غـرف تحريـر الأخبار، وليـس في المـزاج المتغير

للناخبين. وهذا ما دفع وزير العدل الألماني هايكو ماس للتعبير عـن قلقـه بالقـول «إن العالـم لـن ينتهي بانتخـاب ترامب، ولكنه سيزداد جنونا».

النائب البرلماني الروسـي فيتالي ميلونوف، صرح لصحف بلاده بأن هيلاري سـاحرة لعينة، حتى أن شـخصا مثيرا للسـخرية مثل ترامب أفضل منها.

بالنسـبة إلى الكاتب إدوارد لوس الذي عاش في الولايات المتحـدة علـى فتـرات منـذ نهاية القـرن الماضي، هـذا هو العام الذي بدأ فيه تلاشي حس الديمقراطية، فالغراء الذي يربط الناس ببعضهـم وهـو حيوي جدا بالنسـبة إلـى أي مجتمع حر، آخذ في التفكك.

مهما يكن من أمر، فإن الذي حدث في بريطانيا والولايات المتحدة والذي سيحدث لاحقا، هو نوع من الصحوة، وأيا كان ما سـيحدث، ستسـتمر الحرب، وإن الفكرة القائلة بأن وسـائل الإعـلام أول مـن يدخـل ميـدان القتـال وآخر من يغـادره لم تعد صالحة في زمن مواقع التواصل الاجتماعي.

مكر شيطاني في معركة السلطة مع الصحافة

قد تبدو صيغة العلاقة بين السلطة والصحافة واضحة بقدر كاف، إلا أنها في حقيقة الأمر ملتبسة، فبمجرد أن تكون الصحافة مهادنة هذا يعني أنها خضعت لإملاءات السلطة، لكن السلطة لن ترحم الصحافة وستشن عليها معركة قاتلة عندما تجدها تهدد بشكل حقيقي وجودها.

الحكومة والسياسيون لا يدفعون أكثر من ضريبة الكلام، فيما الصحافة مهتمة بحرية تبادل المعلومات ومنع الفساد والتغول.

حتى يبدو تفضيل النظم الديمقراطية الكبرى لصحافة من دون حكومة على حكومة من دون صحافة، حكمة أفلاطونية، لم تتحقق في يوم ما منذ أن كتبت الصحافة مدونتها الأولى في التاريخ.

العداء كامن بين الصحافة والحكومة ولن تصل هذه العلاقة إلى المثالية مع كل الحماية التي توفرها المؤسسات الديمقراطية للصحافة.

غرور الحكومة ومصالحها واندفاع الصحافة وتهورها أحيانا، ليست أجواء طيبة لعلاقة مثالية.

لم تكن الصحافة بحاجة إلى «مكر شيطاني» يديره الرئيس

الأميركـي دونالـد ترامـب، وفـق تعبيـر الكاتـب سـيمون كيلنر، لنكتشف مسعى الحكومة لتقويضها.

مشـكلة الصحافـة مـع الحكومـة قائمـة منـذ أن وجـدت الصحافـة، ليـس في فكرة العـداء التاريخي الكامن بين الطرفين، فأداء الحكومة دائما تحت مشرط النقد الصحافي، بينما اتهامات الحكومـة للصحافـة لا تنتهي بالانحياز وعدم الموضوعية وغالبا ما تصل إلى وصفها بالكاذبة.

سـتتفاقم المشـكلة بيـن الطرفيـن وتصبـح موضعـا للتهكم والسـخرية مـن قبل الجمهور عندما تهـادن الصحافة في خطابها وتلمع أداء الحكومة!

وهذا ما افترضه كلام راسل بيكر المراسل السابق لصحيفة نيويورك تايمز، بعدم وجود صحافيين اليوم يغطّون البيت الأبيض كما كان الأمر سابقا، بل يوجد صحافيون يغطيهم البيت الأبيض، في إشارة مثيرة إلى علاقة المصالح وفكرة البقاء ما بين الحكومة والصحافة.

اليوم ثمة انتباه مفزع وتضخيم لتلك العلاقة ما بين الصحافة والحكومة، وكأن أعيد إحياؤها من جديد «من قال إنها ماتت؟».

الفكـرة التـي يريد ترامب ترسـيخها في ذهـن الجمهور عن الصحافة بوصفها مكرا شيطانيا، أربكت الصحافة وجعلتها تعيد التفكير في مصالحها قبل خطابها.

هذا ما يذهب إليه الكاتب سيمون كيلنر فـ«المكر الشيطاني» الذي يخطط له ترامب يسعى إلى تقويض الصحافة.

يعود سيمون إلى العلاقة بين الحكومة والصحافة، مفترضا أنها يجب أن تكون صريحة، لأن دور كل طرف منهما واضح، فالحكومة هي النخبة والصحافيون يمثلون المعارضة للسلطة القائمة.

لكن الظروف السياسية التي يمر بها العالم جعلت دونالد ترامب يقلب الأمور رأسا على عقب.

علينا ألا ننسى هنا أن هذا المكر ينبت في أرفع الواحات الديمقراطية في العالم التي تضمن حرية الصحافة كرقيب ضامن ومانع لفساد الحكومة.

ستتبادر عاجلا إلى الذهن الصورة الواهنة التي تمثلها علاقة صحافتنا العربية مع الحكومات، وعما إذا كانت قد مرت فعلا بتلك العدائية من أجل مصلحة الناس!

هل ثمة حرب على وسائل الإعلام حقا، اندلعت مع وصول الرئيس الأميركي إلى البيت الأبيض؟

هذا ما يجد له المخرج الأميركي تشارلز فيرغيسون إجابة في دفاعه عن وسائل الإعلام، ويقر بإعلان ترامب مثل هذه الحرب بالتزامن مع ضغوط مالية كبيرة على وسائل الإعلام.

ويعود فيرغيسون إلى التاريخ من أجل تأكيد فكرة أن الصحف لا تستطيع كشف مواضع الفساد والتزوير ونهب المال العام، إن لم تكن قوية ماليا ورابحة تجاريا.

ويذكّر أن واشنطن بوست ونيويورك تايمز وصحفا أخرى وقفت في وجه الرئيس ريتشارد نيكسون بشأن الغارات السرية

على كمبوديا وكشفت فضيحة وترغيت، لأنها كانت صحفا قوية ماليـا ورابحـة تجاريـا، أما اليـوم فقد أصبحـت الصحف تقلص مـن عدد صحافييهـا، خاصة الصحافيين الاسـتقصائيين، وبيعت واشـنطن بوسـت لشـركة أمازون، بينما تعد لوس أنجلوس تايمز وشـيكاغو تريبيـون فـي عـداد الصحف المفلسـة، فيمـا تتعرض الشـبكات التلفزيونيـة لضغـوط ماليـة كبيـرة، ولا توجد الآن في الولايات المتحدة أي شبكة تلفزيونية مستقلة.

يعترف سـيمون بأن خطة ترامب الماكرة لتقويض الصحافة مـن خـلال تهجمـه علـى الصحافيين واسـتعماله عبـارة الأخبار المزيفة، ووصفه الصحافة بأنها عدو الشعب، نجحت في تصوير الصحافـة بأنها وسـيلة في يدي السـلطة القائمـة تخدم مصلحتها بينما هو يتحداها لخدمة مصلحة الأميركيين العاديين.

من المحزن أن يستطيع الرئيس الأميركي منع عدد من أهم وسـائل الإعلام في العالـم، على غرار نيويورك تايمز والغارديان «سي أن أن» و«بي بي سي» من حضور مؤتمراته الصحافية، لكن ألا يجدر بنا أن نحزن ولو قليلا عندما نجد أن صحافتنا العربية ما زالت تطلق بوجه الرؤسـاء أسـئلة تكتب لها مسبقا، مثل فقاعات الصابون!

سـلوك ترامـب كشـف لنـا بوضـوح العلاقـة الملتبسـة بين الصحافـة والسـلطة. عندمـا يتعلـق الأمـر بقيم الصحافـة الغربية فإنها لن تتراجع بسـهولة، هي ليسـت قديسـة عندما يتعلق الأمر بمصالح الدول والسياسات في العلاقة مع الخارج، لكنها تشعر

هـذه المـرة أن حريتهـا أثمـن مـا تملكـه باتت مهـددة، وثمة من يقـوض مصداقيتهـا أمام الجمهور ويوصلها إلى الإفلاس، لذلك فإن الصحافة لن تنسحب خاسرة من هذه المعركة.

لنتذكـر ونحـن نتابع معركة «المكر الشـيطاني» التي يُسـقيها الرئيـس الأميركـي وفريـق عمله بقوة مالية وإعلاميـة موازية، أن صحافتنـا العربيـة عاجزة عن الدفاع عن مصداقيتها المهدورة بيد السلطات ورؤوس الأموال وأخيرا مصالح رجال الدين!

مفعول ترامب
دواء للكساد الإخباري

لم يجد محرر نشـرة أخبار العاشـرة، الأهم في هيئة الإذاعة البريطانيـة «بـي بـي سـي»، غير خبر اختطاف قـرد صغير من قبل أسـرة أفريقية ومطاردة رجال الشـرطة لأفرادها من أجل إطلاق سـراح الحيـوان المسـكين قبـل بيعه! لم يجـد غير هذا الخبر كي يقحمه بين أخبار وتداعيات الرئيس الأميركي دونالد ترامب التي استحوذت على وقت النشرة برمتها تقريبا!

يبدو الاختيار سـورياليّا في عصر ترامب الإخباري بامتياز، لكن التعاطف مع محرر نشـرة «بي بي سـي» يجعلنا نفسـر الأمر بأنه وقع تحت ضغط إطلاق نار الكلام المستمر بكل الاتجاهات من قبل ترامب، فلم يعد يهتم بغير ذلك من الأخبار.

دونالـد ترامـب يطلق نار التصريحات والقرارات في جميع الاتجاهات، والتلفزيون نشر عدساته في كل الأماكن كي يستحوذ علـى مشـاهد إطـلاق نـار الكلام، وهل ثمة خبـر أغلى وأهم من إطلاق النار؟

ديفيـد غيرغـن، المستشـار السياسـي للرؤسـاء السـابقين نيكسون وفورد وريغان وكلينتون، يفسر ذلك بقوله «الأميركيون مصابون بالدهشة من الأيام الأولى من رئاسة ترامب كحال بقية

العالم، الخبر السار لأنصاره هو أنه لم يتغير، هذا هو خبر سيئ من وجهة نظر منتقديه، الذين يأملون أن يصبح أكثر عقلانية ويتصرف بصورة تليق برئيس الجمهورية».

وفي كل الأحوال ثمة خبر سيئ ملفت لوسائل الإعلام، حتى وإن صنف ضمن الأخبار السارة لمحبي ترامب!

عندما شاهد 84 مليون شخص المناظرة الأولى بين ترامب وهيلاري كلينتون، أُعتُبر الأمر حينها حدثا تاريخيّا بالنسبة إلى التلفزيون فيما يتعلق بمناظرة رئاسية.

لكن مثل هذا الرقم تضاعف مرات مع الدراما السياسية المتواصلة التي يقودها الرئيس الأميركي، الأمر الذي يمنح كبرى القنوات التلفزيونية في العالم فرصة عيش أفضل السنوات مشاهدة على الإطلاق، لقد رفع «مفعول ترامب» أرباح الشركات التلفزيونية كما لم تتوقع ذلك من قبل، ومن أجل زيادة الأرباح صار لِزامًا عليها أن تزيد تأثير «مفعول ترامب» التلفزيوني، إنه دواء للكساد الإخباري لم تنجح كل النظريات الإعلامية من قبل في التوصل إليه، لذلك لم يفكر محرر النشرة الإخبارية في «بي بي سي» كثيرا قبل أن «يحشر» خبر القرد الصغير بين حشد أخبار ترامب، لأنه حصل على الأهم من أخبار الدراما السياسية التي تربك العالم!

عندما كان ترامب مرشحا في السباق الرئاسي قال ستيف لانزانو، رئيس مكتب إعلان تلفزيوني يمثل ما يقارب 700 محطة محلية أميركية، «لا أعتقد على الإطلاق أننا سنحصل على مرشح

آخر مثل هذا، الجميع سيجري دراسات الحالة الخاصة به، وبعد ذلك سنمضي قدما».

أما اليوم فإن لانزانو سعيد إلى حدّ الإفراط وهو يعيش صحة ما توقعه قبل أشهر، وهذا ما عبر عنه بوضوح أيضا ليز مونفز، الرئيس التنفيذي لشبكة «سي بي إس» بقوله «إن مسار دونالد ترامب للبيت الأبيض قد لا يكون في مصلحة أميركا، لكن من المؤكد أنه أمر رائع لشبكة «سي بي إس»!

فقد ارتفعت التصنيفات بسبب إقبال المشاهدين على متابعة القنوات لرؤية الدراما السياسية وهي تتبيّن أن «الإيرادات تنهمر علينا، صحيح أنه أمر كريه حين أقول ذلك، لكن السبب في ذلك هو دونالد».

وتوقعت شركة «إس إن إل كاجان» لتحليل وسائل الإعلام، أن تحصل أكبر ثلاث شبكات كابل إخبارية في الولايات المتحدة «إم إس إن بي سي» و«فوكس نيوز» و«سي إن إن»، على 1.96 مليار دولار من إيرادات الإعلانات في العام الأول من رئاسة ترامب.

هكذا ببساطة صارت الشبكات الإخبارية التلفزيونية تسرق جمهور قنوات الدراما والمنوعات والترفيه، بفعل «مفعول ترامب»!

لأن الرئيس حطم الرقم القياسي في مفاجأة فوزه، والرقم القياسي في اتخاذ القرارات المفاجئة والمثيرة لإرباك الولايات المتحدة والعالم، هو أيضا حطم الرقم القياسي كأسرع رئيس

يواجه رفضا شعبيا بعد أيام من جلوسه في البيت الأبيض، وكل تلك الأرقام القياسية موضع احتفاء متصاعد في التلفزيون، فليس هناك ما هو أكثر إغراء مثل لعبة الأرقام هذه لصناعة قصة إخبارية مشوقة، «بالمناسبة كل ما يصدر عن ترامب مشوق»، وهذا ما تفسره صحيفة ديلي تليغراف البريطانية بأنه في الأحوال العادية أي رئيس جديد يستغرق مئات الأيام في منصبه حتى يبدأ شعبه في تكوين الانطباعات السلبية حول سياساته ويَحدُث توافق عام على رفضها، وهذه كانت الحال مع الرؤساء الأميركيين الخمسة السابقين.

لكن مع ترامب الوضع ليس كذلك؛ فالملياردير ونجم التلفزيون السابق ورئيس الولايات المتحدة لفترة رئاسية واحدة، تمكن من تحطيم كل الأرقام القياسية الخاصة بعدد الأيام التي يستغرقها المواطنون لتصل نسبة معارضيه إلى أكثر من خمسين في المئة من الأميركيين.

وعن ماذا يبحث التلفزيون والمعلقون الإخباريون والصحافيون غير ارتفاع نسبة المعارضة والجدل الذي يثيره الرئيس؟

لكنْ هناك جانبا سلبيا لتأثير ترامب المغناطيسي على جمهور التلفزيون، وهو ما يصفه إعلاميون بمؤشر على بداية اتجاه عام، ينظرون إليه بحذر، أن تستحوذ الأفكار الإشكالية والقرارات المؤثرة على طبيعة تواصل الدول والشركات، وتتفاقم التظاهرات الغاضبة، وبعدها يُفك لجام اليمين المتطرف، في مشاهد مستمرة

ومتواصلة على التلفزيون، هذا يعني أن صناعة رأي خطير تتولد لدى الجمهور في العالم. ظهر مثل الأمر لاحقا في اقتحام مبنى الكونغرس بعد هزيمة ترامب في الانتخابات أمام بايدن.

بيـل داي مستشـار شـركات تلفزيونيـة كبـرى فـي الولايات المتحـدة فسـر ذلـك بالقول «لقد تشـتّتَتْ القطـع، ولن تعود أبدا إلى حيث بدأت، الآن يصبح السؤال المفتوح هو: من المستفيد من المشهد الجديد الذي سينبثق بعد ترامب؟».

كل التكهنـات لا أهميـة لهـا مـع تصاعـد «مفعـول ترامب» التلفزيوني، ليس هناك أي تاريخ يمكن أن نتطلع إليه لنعرف ماذا سـيحدث، لكـن عصر التلفزيون قـد أصبح عصر ترامب بامتياز، وعاد التلفزيون إلى منصته المؤثرة أكثر من أي وسيلة إعلامية أو رقمية أخرى بفضل مفعول ترامب.

جورج أورويل تنبأ بالحقائق البديلة ودونالد ترامب قاد جوقتها

يستعيد دوريان لينسكي مؤلف كتاب «33 دورة في الدقيقة: تاريخ أغاني الاحتجاج» الأجواء التي كتب فيها جورج أورويل روايته 1984، مع الأجواء التي أدى فيها دونالد ترامب الرئيس الخامس والأربعون للولايات المتحدة الأميركية اليمين الدستورية. في كتاب أشبه برحلة عاطفية يدرس مدى أهمية رواية 1984 في عصر ما بعد الحقيقة، عصر ترامب بامتياز.

ثمة مشترك بين التاريخين المتباعدين نسبيا، يمكن جمعه بحزمة من التسميات والمصطلحات الشائعة في وسائل الإعلام اليوم. لقد سجل أورويل نبوءته منذ ذلك التاريخ، وتحققت اليوم في ما نطالعه ونتصفحه ويمر علينا كتدفق مستمر ومتواصل. فلا شيء مبني على كذبة مهما كان مغريا يمكن أن يكون له قيمة في النهاية، ذلك ما تحاول بعض وسائل الإعلام تعمد نشر الأكاذيب كخطاب مدفوع الأجر أو تجنّب الوقوع في فخها للمحافظة على القيم الصحافية.

أصبحت العبارات والمفاهيم التي سبكها أورويل تركيبات أساسية للغة السياسية والإعلامية، ولا تزال لامعة بعد عقود من الاستخدام، لم تصدأ كلمات مثل سوء الاستخدام، الجريدة

الرسمية، الأخ الأكبر، رجال الفكر، الكراهية، التفكير المزدوج، انعدام الشخصية، الذاكرة المثقوبة، وزارة الحقيقة... بينما تحوّل بطل رواية 1984 إلى مرادف لكل ما يكره ويخشى منه.

يستذكر دوريان لينسكي في كتابه «وزارة الحقيقة: سيرة حياة رواية 1984 لجورج أورويل» الذي نشرت صحيفة الغارديان فصلا منه تصريح السكرتير الصحافي للرئيس الأميركي عندما زعم بأن حفل تنصيب ترامب شهده أكبر جمهور في العالم على الإطلاق، إلا أن لا أحد يرى ذلك فالحفل منقول على الشاشات ومن حضر المراسيم لا يمكن أن يصدق الكذبة الكبرى، وعندما طُلب من كيليان كونواي مستشارة الرئيس تبرير مثل هذه الكذبة الزائفة، عادت إلى مصطلح «الحقائق البديلة».

لا أحد يعرف أن كانت قد استعادتها من رواية جورج أورويل، أم أنها استوحيت من عصر ترامب نفسه، لكننا سنعرف لاحقا أن تصريحات ترامب زادت بشكل كبير من توزيع رواية 1984! فخلال خطاب ألقاه ترامب في يوليو 2018 قال «ما تراه وما تقرأه ليس ما يحدث».

وبعد تصريحات مستشارة ترامب عن الحقائق البديلة وصفت مجلة هوليوود ريبورتر رواية 1984 «بالقطعة الأدبية الأكثر سخونة في البلاد» وأعلنت العشرات من دور السينما في جميع أنحاء الولايات المتحدة عن إعادة عرض فيلم مايكل رادفورد 1984.

عندما نُشر كتاب جورج أورويل في المملكة المتحدة في

الثامن من يونيو 1949، في قلب القرن العشرين، تساءل أحد النقاد كيف يمكن لمثل هذا الكتاب أن يمارس نفس القوة على الأجيال القادمة.

ومع توقع نقاد آخرين أن هذه الرواية سوف تتضاءل مع مرور الوقت، إلا أنه بعد عقود على إصدارها ما زالت 1984 الرواية التي نستعيدها كلما كان الحديث عن تشويه الحقيقة في وسائل الإعلام وعندما يتم إساءة استخدام السلطة، بل أنها بمثابة المعبّر بامتياز عن أسوأ مخاوفنا عن نهاية العالم.

لقد طبع من الرواية عشرات الملايين من النسخ وبكل اللغات تقريبا، وتسللت إلى وعي عدد لا يحصى من الناس الذين لم يقرؤوها، وتم إعادة تقديمها في السينما والتلفزيون والإذاعة والمسرح والأوبرا والباليه، وقد أثرت في الروايات والأفلام والمسرحيات والبرامج التلفزيونية والإعلانات المصورة والخطب والحملات الانتخابية والانتفاضات.

قضى بعض الناس سنوات في السجن لمجرد قراءتها. لا يوجد عمل خيالي أدبي من القرن الماضي يعادل الانتشار الثقافي لرواية 1984 من دون أن يفقد تأثيره مع مرور الوقت. مع أن روائيين كبارا ونقادا مثل ميلان كونديرا وهارولد بلوم، وصفوها بالرواية السيئة، معتبرين متنها مجرد نثر لرسم مؤامرة وفكر سياسي متنكّر، لكنهم لم يتمكنوا من اكتساب أهميتها في كل ما نشروه. لأن نثر أورويل الشفاف يخفي عالما من التعقيد حسب وصف دوريان لينسكي.

وجادلـت كاتبـة الخيـال العلمي الأميركيـة مارتا راندال بأن هناك شيئا واحدا لم يتنبأ به أورويل وهو انتشار التشاؤم «سيكون من الصعب جدا على الأخ الأكبر إقناع أي شـخص بأي شـيء بعـد ووترغيـت وبعد حرب فيتنـام». يمكن إضافة حرب احتلال العـراق وأكاذيـب جورج بوش وأسـلحة الدمار الشـامل وأخبار فيسـبوك وفضيحة التنصت والمتاجرة بالخصوصية... إلى كلام راندال السابق.

لـم يتوقـف أورويل عن التفكير وهو يكتب روايته الأشـهر، بـل لـم يتوقـف مطلقـا عن إعادة تقييـم الآراء في متن الرواية. أو على حد تعبير الصحافي كريستوفر هيتشنز، أحد أكثر المعجبين ببلاغة أورويل «لا يهم ما تفكر به، ولكن كيف تفكر».

وهكذا بقيت رواية 1984 نصا مروعا ومقنعا، قرأه الكثيرون أبان الشـباب والمراهقة ولأنه بقي يشـغل تفكيرهم أعادوا قراءته فـي أوقـات لاحقـة من أعمارهـم كلما تصاعـدت الأحداث في العالم، عند انهيار الشـيوعية وسـقوط جدار برلين ونهاية الفصل العنصـري فـي جنوب أفريقيا، صعود الشـعبوية اليمينية المتطرفة والقوميـة الاسـتبدادية والتضليـل المتفشـي وتراجـع الثقـة فـي الديمقراطية الليبرالية.

حتى بعد أحداث 11 سبتمبر برزت أهمية الرواية وتم تطبيق وقائعها على اللغة السياسـية وفي خطاب وسـائل الإعلام أو في طرق المراقبة الأمنية، واليوم الرواية حاضرة ليس بسبب شعبوية ترامب وبريكسـت فقط، بل مع ارتفاع منسـوب الديمقراطية في

العالم وشيوع المراقبة والتجسس وانتهاك الخصوصيات، وما تقدمه شبكة الإنترنت من تجربة حية للإنسانية بوصفها قوة كبيرة إلى الأبد.

وهكذا أصبحت رواية جورج أورويل كتابا مصمما لإيقاظ الناس كلما ارتفع منسوب الحديث في وسائل الإعلام عن الديمقراطية والشمولية وموت الحقيقة، وليس مجرد رواية تخيّلت تاريخا قادما وصنعت منه أحداثا. أو بتعبير المخرج مايكل رادفورد أنها أشبه بالأسطورة التي تحرضك على ما تفعله، ويصفها بالمرآة قبل وبعد إخراج فيلمه 1984، لأنها بالنسبة للكثيرين اليوم كلما أعادوا قراءتها يصبح الأمر متعلق بشي آخر لم يجدوه في القراءة السابقة.

يتصاعد الحديث اليوم عن هدف أورويل من الرواية، وكيف تبرز أهميته في عصر ما بعد الحقيقة، لأن العالم لم يعد يرى الأخبار الموثوقة وهو يعيش وسط الأخبار الملفقة التي باتت تمتلك وزارة الحقيقة «فيسبوك» التي تنبأ بها مؤلف رواية 1984 قبل عقود، إلا أن كل ذلك رغم مسحة التشاؤم، قد يكون دافعا أقوى لبحث الناس عن الحقيقة التي تنبأ بغيابها جورج أورويل قبل أن يرفع جوقة عزفها دونالد ترامب. لأن جوهر رسالة أورويل كانت تتلخص في استمرار الإنسان بالإيمان في الحقيقة والمحافظة على روحها وطلب المعرفة من أجل منع استعباده.

ترامب مفرق الأزواج

صديقتي الأيرلندية سيدة معتدة بنفسها ومتابعة دؤوبة للشأن السياسي الأميركي منه تحديدا، ومثل هذا الأمر ليس ذا أهمية كبيرة في اهتمامات البريطانيين وكأن الأمر لا يعنيهم غالبا، اهتمامها السياسي يعبر أيضا إلى العالم العربي، تقرأ كثيرا وتدرك ما يحصل هناك.

ومع أن زوجها العربي المهاجر إلى بريطانيا منذ ستينات القرن الماضي، يرى أن المشكلة برمتها تكمن في إسرائيل وليس بغيرها، إلا أنها تختلف معه، ويكاد يكون صوتها السياسي تعبيرا عما تفكر به الصحافة اليمينية سواء في واشنطن أو لندن.

لا تخفي هذه السيدة البريطانية وهي في عقدها السابع اهتمامها بالرئيس الأميركي دونالد ترامب، وترى فيه حلا لمعضلات السياسة، وتستهجن ما يقال عنه، وترى مثل هذا الكلام يمكن أن يقال على أي رئيس يفكر بطريقة مختلفة، فترامب رئيس مختلف كليا من أجل التغيير الذي تتوخاه هي المرأة البريطانية!! ولا ترى أي أهمية لمزاعم مايكل وولف مؤلف كتاب «النار والغضب»، بأن كل مساعدي الرئيس يرون أنه كالطفل يريد تحقيق رغباته بشكل فوري ومباشر، وإذا كان الأشخاص المقرّبون منه جدا لديهم هذا الشعور، من الأفضل

أن نبحث عن السبب.

باختصار إن مواقف ترامب تثير مزاج هذه السيدة البريطانية مع أنها ليست عضوا في أي حزب يميني، وليست متطرفة لبريطانيتها، إذا عرفنا أنها من أصول أيرلندية، وكيف لا وزوجها من أصول عربية. فلماذا متحمسة أكثر من أي بريطاني إلى الرئيس الأميركي؟

يمكن أن نجد شيئا من الإجابة في كلام المؤرخة دوريس كيرنز غودوين، إحدى أشهر كتّاب السير الرئاسية في الولايات المتحدة، بقولها إن سلوك ترامب يشير إلى الحاجة إلى أن تركز الحملات الانتخابية بشكل أكبر على المزاج العام للمرشح في المستقبل.

وقالت «إنه ربما كان إبراهام لينكولن وليندون جونسون عرضة لنوبات غضب، لكنهما وجدا سبلا للسيطرة على مزاجهما»، معتبرة أن النوبات العامة التي تصيب ترامب، والافتقار إلى التواضع، وعدم القدرة على السيطرة على انفعالاته، هي أمور نادرة الحدوث في التاريخ الأميركي. ومع ذلك نجد من يراها حلا لمعضلات تحل على العالم.

عبّرت لي السيدة البريطانية في أمسية جمعتني مع زوجها، عن امتنان فائق لأنني أهديتها نسخة إلكترونية من كتاب «النار والغضب» وقالت إنها ستقرأ الكتاب مع أنها متأكدة من الهراء الكامن في متنه، الأكاذيب بالنسبة إليها مستمرة في كل ما يخص ترامب، إلا أنه سيبقى رئيسا وفق اعتقادها.

نظـرت إلـى زوجهـا وقلت له إن امرأتك متحمســة أكثر مما ينبغـي إلـى ترامـب، فقـال أعرف ذلك، لكن الأمـر لم يصل بعد إلى مرحلة الطلاق! لسوء الحظ لم أرها بعد أن انهزم ترامب في الانتخابات الرئاسية أمام بايدن، على الأقل كي أعرف إن تغيرت نظرتها للأمور أم ما زالت ترى في ترامب المنقذ.

ترامب لعبة صحافية لا تُمل

لم تعد المفاجأة قائمة في كلام راسل بيكر المراسل السابق لصحيفـة نيويـورك تايمـز، بعـدم وجود صحافييـن يغطّون البيت الأبيـض، بـل يوجد صحافيون يغطيهم البيـت الأبيض، بالطريقة التهكمية نفسها في عصر الرئيس دونالد ترامب.

ثمة لعبة صحافية مستمرة اسمها ترامب وستستمر من دون أن يتوقع أحد نهايتها القريبة، حتى وإن حدث ما لا يمكن توقعه في البيت الأبيض! فإذا أضفنا هذه المقالة إلى ما نشر عن ترامب، سيكون هناك الآلاف مما كتب من مقالات، وليس بعيدا أن تطول قائمـات المقـالات، حتـى يمكـن تخيلها كشـريط صحافي يمتد المئات من الكيلومترات! ألم أقل منذ البداية إنها لعبة مستمرة!

إنها لعبة صحافية سهلة ولا تُمل لدرجة يصبح فيها تحريك تمثال مارتن لوثر كينغ داخل مكتب ترامب مادة صحافية صالحة للكتابـة، وهـذا مـا حدث بالفعل، ناهيك عـن مداعبة ابن ترامب لابن شـقيقته ولون وثمن ربطة عنق الرئيس، وتفسـير الإشـارات العميقة الصادرة من أصابعه منذ لحظة أداء القسم، كل شيء جائز في الكتابة كي تستمر اللعبة المسليّة، وها أنا نفسي أدخل متحمسا فيها!

بـدأت اللعبـة مـع مفاجـأة اسـتمرار ترشـحه فـي انتخابات

الرئاسـة الأميركيـة، واسـتمرت مع صعـوده وتواصلت مع تدفق الداعميـن لـه، وتفاقمت أكثر مع فشـل الصحافـة توقع فوزه في الـدورة الأولـى، واللعبـة متواصلة على وتيـرة مثيرة ومكررة منذ أدائه القسم الرئاسي. حتى مغادرته البيت الأبيض كرئيس مهزوم لم يستطع الحصول على دورة ثانية من الحكم.

تلك هي اللعبة الصحافية التي يمكن أن يطلق عليها ببساطة اسـم ترامـب، غالبيـة الصحافيين أصبحـوا مولعين ومتخصصين بها، لسـبب بسـيط اسـمه ترامب أيضا، فصار هو السبب والنتيجة في آن، ومن السهولة تناوله، بل في واقع الأمر كل ما يصدر عنه يمكـن تناولـه وبنـاء قصة صحافية عليه، ليـس لأنه رئيس الدولة الأعظم في العالم، بل لأنه ببساطة ترامب! ثمة متراجحة رياضية ولدت اسـمها الصحافة - ترامب، حتى بات مصطلح «الحقائق البديلة» قائما كرد تعبيري من إدارة ترامب على حقائق الصحافة، كما تعهد شون سبايسر المتحدث باسم البيت الأبيض بألا يكذب أبدا، عندما سأله صحافي عما إذا كان ينوي قول الحقيقة بشكل دائم، رد عليه سبايسر «نيتنا ألا نكذب عليكم أبدا».

لكن الحقيقة في نهاية الأمر تبقى معلقة بين بندول الصحافة والبيت الأبيض، بما أن مصطلح ما بعد الحقيقة والحقائق البديلة نتاج لعصر ترامب.

لنعد إلى الخلف قليلا ونتأمل ماذا كُتب في جلجلة التنافس الانتخابي للوصول إلى البيت الأبيض.

لقد صنع الكاتب الصحافي فيليب سـتيفنز لنفسـه مسـاحة

صحافية مضمونة ومقروءة وهو يعالج الجانب السار في شخصية دونالد ترامب!، فهو يرى فيه أنه ليس شخصا سيئا تماما، وربما هناك وجاهة في تفكيره.

تأمل كيف يجد ستيفنز مسوغا له عن كره النساء؟

«حسنا، بالتأكيد، تعد آراؤه المتعلقة بالنساء كريهة، لكن بصراحة نحن نسمع الكثير من الحديث نفسه في معظم غرف خلع الملابس للرجال».

ويستشهد بكلام من رودي جولياني عمدة نيويورك الأسبق، حول الشخصية الحقيقية لترامب؟ إنه شخص «مفكر وذكي ومتعلم ومثقف».

لن تنتهي القصة في ما كتبه ستيفنز عن ترامب في صحيفة فاينانشيال تايمز، كانت اللعبة في بداية شوطها أمام الصحف، وهي لم تزل في البداية.

المثير في الأمر أن ترامب ليس من تجار الكلام أسوة بكل الزعماء الذين غادروا المناصب أو ما زالوا يجلسون على كراسيها، إنه لا يبيع ما يقوله، فلم يعد يحتاج إلى المال، ندرك ذلك لحظة تخلّيه عن راتبه كرئيس للولايات المتحدة، لأن دخله السنوي يتخطى نصف مليار دولار.

تجار الكلام أكثر من أن يحصون وتلك قصة مكررة في مفاهيم الصحافة يمكن المرور عليها من دون اهتمام يذكر، وآخرهم باراك أوباما ورئيس الوزراء البريطاني السابق ديفيد كاميرون الذي أنهى آخر حديث له في جامعة ديبو في بلدة صغيرة

في إنديانا، مقابل 120 ألف جنيه في الساعة.

لأن الرئيس الأميركي بدأ خطابه الأول بالتحدث بغطرسة الحُكّام بالقدر نفسه من الغطرسة المعهودة، بالتالي يقترح كريستوفر كالدويل الكاتب في صحيفة فاينانشيال تايمز، هوية جديدة للطبقة الحاكمة: ليس كأبطال رحيمين يدافعون عن المُستبعدين، وليس كزعماء جريئين للصناعة، وليس حتى مدافعين وقورين عن الأخلاق العامة، بل كخنازير حول حوض العلف، تلك أيضا من مواصفات اللعبة المستمرة للصحافة، الكلام البذيء مسموح به!

الكاتب فيليب ستيفنز صنع قصة من المقارنة، فترامب صالح للمقارنة دائما ليس مع باراك أوباما بوصفه الرئيس السابق، بل حتى مع فلاديمير بوتين: ترامب مطوّر عقارات ثري من حيث الخلفية، أما الرئيس الروسي فهو رئيس سابق في جهاز الأمن الفيدرالي في بلاده. هذا استعراض أولي حتى تنجلي الصورة.

ويصل ستيفنز إلى القول «إنهما أخوة في النرجسية. إذا نجح تشجيع ترامب في تخفيف كبرياء بوتين الجريح، فهذا أمر لا بأس به».

لا أعتقد أنه ثمة أمر أكثر تسلية في تلك اللعبة الصحافية مع ترامب، إنها ستستمر لسببين، أولهما بالطبع شخصية ترامب نفسه، وثانيهما أن الصحافة بشكل عام أصبحت أسيرة وعاجزة عن صناعة محتوى متميز، فلم يتبق لها غير أن تلعب في طريق طويل مع الرئيس الأميركي الجديد!

الدول ليست من حراس الحقيقة

عندما اتهم الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما الصحافة بأنها تغذي القصص الإخبارية الحساسة من أجل الحصول على المزيد منها. وعندما لا يكف الرئيس دونالد ترامب عن وصم الصحافة بالكاذبة والملفقة، فهذا لا يعني أن الحكومة الأميركية مثلها مثل كل حكومات العالم محب وضامن للحقيقة. أو وفق تعبير آلن روسبريدغر رئيس تحرير صحيفة الغارديان السابق بأن «الرئيس لم يعمل أبدا في غرفة الأخبار كي يعرف ذلك. وعندما يطوق الصحافة، أو يتهمها بتغذية تداعيات القصص الإخبارية الحساسة ويطالبنا بتقنينها، فإنه بالتأكيد يسيء فهم طبيعة الأخبار وهدفها».

سبق وأن رفض جاك غولدسميث وتيم وو، مؤلفا كتاب «من يحكم الإنترنت؟ أوهام عالم بلا حدود» التعاطف مع الرومانسية المجردة في النظر إلى السلطة والعولمة تجاه الفضاء الإلكتروني. ولم يكتفيا بعرض الجانب اللطيف للحكومة، عندما يقولان إن الحكومة ليست ضامنا محبا وعطوفا كبيرا يعمل للصالح العام، وتقوم بالأمر الصحيح دائما، بل تعمل من أجل أن تتمكن من فرض سيطرتها على الإنترنت، وإن أي حكومة تمارس القمع يمكنها السيطرة على الإنترنت، بالطبع الأمور تكون أفضل في

ظل نظام ديمقراطي يتمتع بحرية الصحافة والتعبير وقضاء مستقل وانتخابات نزيهة.

هذا يعني ببساطة أن زمن مصطلح «ما بعد الحقيقة» لم يولد اليوم أو في عصر ترامب أو زمن الأخبار الملفقة المتصاعدة على المنصات الاجتماعية. الحكومات على مر تاريخها كانت مصدرا لما بعد الحقيقة. ولدى الدول تاريخ طويل في التلاعب بالحقائق وفرضها على وسائل الإعلام.

فكذبة نيرة ابنة سعود الناصر الصباح سفير الكويت لدى الولايات المتحدة إبان حرب الكويت عام 1991 تمثل شهادة مريعة للتلاعب الانتهازي بالأخبار، وبإشراف شركات دعاية كبرى، استثمرها الرئيس الأميركي الأسبق جورج بوش الأب ومنظمات دولية كدليل إدانة ضد العراق. لكنها في حقيقة الأمر كانت كذبة مرتبة ومتفق عليها صاغتها شركة دعاية أميركية مع السلطات الكويتية، عندما قدمت الفتاة البالغة من العمر آنذاك 15 عاما شهادة زور زعمت أنها شاهدت جنودا عراقيين يسحبون الحاضنات ويتركون الأطفال يموتون في مستشفى كويتي، بينما الواقع أنها لم تكن في الكويت إبان دخول القوات العراقية لها، ودربت الفتاة على الكذب كجزء من مشروع دعائي دفعت إليه الكويت آنذاك مع شركة العلاقات العامة الأميركية «هيل ونولتون».

«كذبة نيرة» شهادة قريبة من مسلسل الأكاذيب المتورطة فيها الدول والمنظمات الدولية للتلاعب بالحقائق من أجل احتكارها

وحصرهـا بالسـلطات، على أنها الحقيقـة الوحيدة، بينما هي في واقع الحال أكاذيب متصاعدة ومستمرة.

حرب احتلال العراق عام 2003 اسـتندت على كذبة كبيرة شـاركت فيهـا الولايـات المتحـدة الأميركيـة وبريطانيـا والأمـم المتحدة، بزعم امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، لكن الكذبة التـي أخذت مسـاحات هائلة في وسـائل الإعـلام لم تصمد بعد احتـلال العـراق، بينمـا الدمـار مسـتمر، أن تزعم بجلـب الحرية لبـلاد عبـر الحـرب وتأسيسـا على الأكاذيب ذلـك ما حدث منذ عام 2003. فالحرب لم تجلب الحرية، والدول الكاذبة لم توطّئ جبينها خجلا، ووسائل الإعلام أدرجت سلسلة الأكاذيب ضمن أرشيف التاريخ، لأنه وحده من سيحكم في النهاية!

لـم تكـن تلـك الأكاذيب مـن صناعة «المواطـن الصحافي» آنذاك، بل نتاج سلطة دولة نجحت في تمريرها بقوة إلى وسائل الإعلام، فكيف لنا أن نقبل اليوم مزاعم تلك السلطة التي تلاعبت بالحقائق بحرصها على محاصرة الأكاذيب!

لهذا السـبب يجب أن نكون حذرين في التعامل مع العديد مـن الحلـول المقترحـة مـن قبـل السياسـيين لمعالجـة الأخبـار الوهمية، لأنها لا تفعل شيئا يذكر لتحدي ثقافة الحقائق المجزأة، فمثلما يتهم مستشـارو ترامب صحيفة نيويورك تايمز برمتها أنها كذبة كبيرة، من السهولة بمكان العودة إلى سلسلة أكاذيب البيت الأبيض وليس آخرها أسلحة الدمار الشامل في العراق.

يتسـاءل الكاتـب البريطاني كنان مالـك في لغة تهكمية عما

إذا كنـا نريـد تخليـص عالمنا من الأخبار المزيفة اليوم عن طريق العودة إلى الأيام التي كانت الأخبار الوهمية الوحيدة هي الأخبار الرسمية؟

إنـه «غـرض خبيـث وخطيـر» عندما يسـتجوب الصحافيون مـن أجـل فكـرة السـيطرة التي تنشـدها الدول، هكـذا يرى كارل بيرنشـتاين الصحافي والكاتب الأميركي الذي سـاهم في كشـف تداعيـات فضيحـة «ووترغيت» لأن حتـى الديمقراطيات الكبرى ليست حارسا أمينا للحقيقة التي ينشدها الناس.

ويقـول بيرنشـتاين «يبدو أن واشـنطن ولنـدن عازمتان على إقامة حواجز خطيرة ضد مشـروعية نشـر الأخبار من أجل خدمة مصالح ذاتية، وتسويغ ذلك تحت بند السرية لنشاطات الحكومة.

فالتوتـر قائـم حـول دور الصحافـة، وهـو جزء مـن أهداف الديمقراطيـة. ولكـن كمـا تعلمنـا فـي الولايـات المتحدة خلال تجربتنـا مـع فضيحـة ووترغيـت، مـن الضـروري ألا تضـع أي حكومـة قيـودا مـن الترهيب أمام الصحافة الحرة، وإلا فسـتبقيها في الظلام، ونحن علينا أن نقاوم خطر وقوع الديمقراطية فريسة للاستبداد والديماغوجية وحتى الإجرام من قبل القادة المنتخبين والمسؤولين الحكوميين».

مصافحة شغوفة بمصافحة متوترة

كان المشهد سياسيا حاشدا، فالأنظار كلها تتجه إلى أحداث تصنعها التصريحات والمواقف، وبينما قادة العالم يتواجدون في باريس بمراسم الاحتفال بمرور مئة عام على نهاية الحرب العالمية الأولى. كان ثمة حدث مختلف تصنعه وسائل الإعلام.

لقد اكتشفت محطات تلفزيونية كبرى ليلتها، وعناوين صحف في اليوم التالي أن القصة ليست في استذكار حدث مرتّ عليه مئة عام! بل في مصافحة متوترة بين الرئيس الأميركي دونالد ترامب الذي يدير تلفزيون الواقع العالمي، وبين إيمانويل ماكرون رئيس فرنسي طموح بإعادة أوروبا إلى أوروبا.

كان الخبر الأول المصافحة المتوترة التي لم تكتمل بشروطها الدبلوماسية، فلم تكن هناك مصافحة في حقيقة الأمر بين ترامب وماكرون، بل كانت علامات تذمّر واضحة تبرقها عينا ترامب وهو في أروقة قصر الإليزيه الرئاسي. أو بتعبير موقع «بيزنس إنسايدر» مصافحة غريبة في إشاراتها الاستراتيجية.

لقد صنعت وسائل الإعلام دلالة من كفّي الرئيسين المضغوطتين في تعبير عن الخلاف. الأمر الذي يفسر معركة التغريدات التي شنها ترامب بعد عودته إلى بلاده. ثم رد المتحدث باسم الحكومة الفرنسية بنجامين غريفو، مطالبا ترامب

إبداء قدر من اللباقة.

الجملـة التاريخيـة تقـول «مصافحـة العـدو قبـل شـجاعة الشـجعان» في تعبير عن الفروسـية الشـماء وليس الوهن، إلا أن هـذا التعبيـر تحـول فـي العصر الرقمـي لترامب إلـى تهكم على الأصدقاء والأعداء على حد سـواء، وظفه الرئيس الأميركي في تغريدات سريعة ومؤثرة يتداولها الملايين بعد ثوان من إطلاقها، تليهـا مواقـف صلدة أمام العدسـات لا تنتهـي بمصافحة ودودة. حدث بعدها أن ترامب رفض مصافحة نانسـي بيلوسـي رئيسـة مجلـس النـواب الأميركـي، بعـد الانتهاء من إلقـاء خطاب حالة الاتحاد عام 2020، الأمر الذي دفع بيلوسـي إلى تمزيق خطاب ترامب.

مثل هذا الأمر الملفت لا تغفله وسـائل الإعلام لاعتبارات سياسـية. ولأن المصافحـة تعبيـر عـن سياسـة الجسـد وفق علم تحليل الإشارات، إلا أنها تأخذ دلالة مختلفة عندما يتعلق الأمر بترامب الشهير بالمصافحات العدوانية.

علينا أن نتذكر ماذا فعل مع ماكرون عند استقباله في البيت الأبيض، لم يتردد عن نفض قشـرة شـعر الرأس عن بدلة الرئيس الفرنسـي، ليظهره أكثر أناقة، كما زعم! بقوله «لدينا علاقة مميزة لذا سـأنفض هذه القشـرة القليلة، يجب أن نجعله متقن المظهر. وهو كذلك».

مصور وكالة رويترز كارلوس باريا التقط صورة مقربة لكفي الرئيسـين وكأنهما في حالة صراع، وبدت كف ماكرون ضاغطة

بشدة بينما ترامب يحاول سحب يده.

كانت قصة تلفزيونية بامتياز استبقت بها المحطات الإخبارية تغطيتها لتجمع زعماء العالم في استذكار حرب انتهت قبل مئة عام.

واستذكرت صحيفة الغارديان البريطانية مصافحة سابقة بين الزعيمين بوصفها «معركة مصافحة متوترة»، بينما رأت صحيفة دير شبيغل الألمانية أن ماكرون ظهر أكثر ثباتا في لقاء ترامب فيما يكاد يصل إلى نصف عمره!

ووصل الحال بصحيفة ديلي ميل البريطانية إلى استخدام تعبير «الملحمة» عن مصافحة تكشف الخلاف العميق بين أوروبا والولايات المتحدة.

وبدت صحيفة «صن» الشعبية البريطانية أكثر كياسة ليست كعادتها في التقاط الهفوات السياسية والشخصية، عندما وصفت المصافحة بالسلوك الغريب.

يدفع اليمينيون الأوربيون باتجاه أن تكون بريطانيا وفرنسا جزءا اعتباريا من الولايات المتحدة في تهكّم على التاريخ وتجاوز متشدد للجغرافيا السياسية، إلا أن صحيفة «دي فيلت» الألمانية استغلت المصافحة المتوترة لتقول إن الرئيس الفرنسي سحق يد نظيره الأميركي.

لا يكفي توزيع الابتسامات على عدسات المصورين، فالابتسامة تعبير يأتي في هامش كتاب قراءة الإشارات للصحافيين، لذلك لم تكن لا ابتسامة ترامب المتهكمة ولا ابتسامة ماكرون

المجاملة، كافية لإبطال توتر المصافحة.

كان ثمة مشهد آخر لم يفت العدسات، عندما تظاهر ترامب بعدم الانتباه ليد ماكرون ممتدة إليه، ورفع كفه المضمومة بخنصر منتصر لتحية المحتشدين أمام الإليزيه، بينما لم يجد ماكرون بدا وهـو يربـت علـى معصم ترامب بعدما فشـل فـي الحصول على مصافحته. هذا يفسر لنا شعور ترامب حيال ماكرون الذي يحمل وجهة نظر سياسية تجاوزت حدود بلاده، ومثل هذا الأمر يجب ألا يكون إلا عند الولايات المتحدة وحدها.

هل هذا يعني أن كل الأخبار السياسية باتت مكررة ومعروفة إلـى حـد إدراجهـا فـي الهامش، ليكون المتـن الإخباري قصص المصافحات بين الزعماء والإيماءات التي يرسلها الزمن السياسي ممثلا بصليل نظرات ترامب وسيوف تغريداته.

هنـاك سـهام سياسـية لا تدعـو وسـائل الإعـلام إلـى التزام الحيـاد بشـأنها، فالصحافـة لـم تعـد شـريكة سياسـية فـي الزمن الرقمي وحسب، إنها مندفعة لاستعادة دورها المخطوف من جيل الهواتف الذكية، لذلك تفعل ما بوسعها لتكون ملهمة للحكومات فـي اتخـاذ القـرارات الصحيحة. الصحافـة لا تملك الصبر على الانتظـار حتـى الأزمة التاليـة، فتصنع أزمة من مصافحة وتجعلها بمستوى عملية اغتيال!

لا يمثـل نمـوذج ترامـب مثالا سياسـيا يعود له التاريخ كلما أراد أن يقـدم عبـره للنـاس، لكنه يـكاد يكون أفضل النماذج التي تبحث عنها الصحافة لصناعة قصة تدور من دون أن تثير الملل،

ترامب قصة صحافية متجددة، سواء كان بتغريداته المقتضبة أو تعليقاته الجارحة والفاقدة للكياسة أو إيماءاته المعبّرة عن الاستغراب والرفض، وأخيرا بمصافحاته المتوترة، أو المتجاهلة لأكف الزعماء الممدودة وإن كانت أمام العدسات.

علينا ألا ننسى نحن الشركاء في ترويج تلفزيون الواقع السياسي الذي ابتكره الزمن الترامبي، نستيقظ كل صباح لنتابع ما فاتنا من قصص إعفاء أو تنكيل أو وعود بالانتقام قام بها ترامب أثناء نومنا، مثل هذا الأمر مغر ومفيد لوسائل الإعلام، دعك من كلامها عن عداء ترامب للصحافة، لأنها غير قادرة على مقاطعة أخباره. لذلك استمرت قصة مصافحته المتوترة مع ماكرون على مدار أسبوع في وسائل إعلام لا تكنّ الود له.

شكرا ترامب...
الإعلام عدو الشعب!

ما يثبت أن الرئيس دونالد ترامب يعيش أجواء مشوشة وفق تعبير نانسي بيلوسي رئيس مجلس النواب الأميركي، أنه أعاد استخدام مصطلح ممهور باسمه عن «الإعلام عدو الشعب»، لأنه يتجاهل عن عمد الصورة المثالية التي افترضتها المقولة التاريخية للرجال الأقوياء الذين كتبوا الدستور الأميركي والتي فضلت دولة من دون حكومة على دولة بلا صحافة!

لذلك كتب مبتهجا في حسابه على موقع تويتر الذي يحظى بمتابعة مليونية «أصبحت وسائل الإعلام الرئيسية في مرمى النيران، وصارت محل احتقار في جميع أنحاء العالم باعتبارها فاسدة وزائفة» متهما الصحافة بأنها عدوّة الشعب والحزب المعارض الحقيقي.

إنه أمر يستحق الاهتمام في التركيز على فكرة «المعارض الحقيقي» التي ربطها ترامب بطريقة مشوشة كعادته بـ «عدوّ الشعب» في النظر إلى الإعلام.

أن يكون الصحافي معارضا مخلصا من أجل إشاعة الحقيقة ومنع الفساد، فهو لا يمكن أن يكون عدوّا للشعب، ذلك ما لا يريد أن يدركه ترامب وهو يعيش مرحلة مستمرة من اللعب

السياسي المسكون بالشغف العبثي.

إن هذا النوع من المعارضة الصحية هو ما يُبقي الديمقراطية على قيد الحياة، ويشكل في فحواه واحدة من المسؤوليات الجوهرية للصحافة الحرة، وفق تعبير الكاتب الأميركي نوح فليدمان.

لقد كتبتُ ذات مرة عندما يكون الصحافيون «كائنات ضارة» للسياسي، فإنهم سيكونون كائنات نافعة بالنسبة للمجتمع. لذلك يجتهد أن يكون الصحافي المتسق مع ذاته «كائنا ضارا» بالنسبة لأي سياسي، بمن فيهم رئيس الولايات المتحدة الأميركية، من أجل تفنيد الأكاذيب المتصاعدة والمستمرة وكشف الفساد ومنع السياسيين من الاكتفاء المجرد بدفع ضريبة الكلام وحدها.

لم يتمّ اختراع الحرية في الولايات المتحدة، بل هناك عدد قليل من الدول التي كانت فيها أهمية الصحافة المستقلة منسجمة بشكل وثيق مع تاريخها الطويل. هذا التقليد الأميركي العظيم من الاحترام المدني للحقيقة وقول الحقيقة هو الآن تحت التهديد. وهذا لا يعني أن الصحافة الأميركية ليست لديها الكثير من الأخطاء والانحياز والغرور وتلفيق القصص، بل إن بعض وسائل الإعلام هي منافذ حزبية تظهر استهتارا عارما بالحقيقة وانقيادا أعمى لخطط الإدارة الأميركية، «هل ننسى أكاذيب جورج بوش عن أسلحة الدمار الشامل لدى العراق والتبني الأعمى لها من قبل نيويورك تايمز مثلا؟».

دونالد ترامب ليس أول رئيس أميركي يهاجم الصحافة

أو يعاملها بشكل غير عادل، لكنه أول من يبدو أن لديه سياسة محسوبة ومتسقة تقوض الشرعية بل وتعرّض عمل الصحافة للخطر.

لكن ليس من مهمة الصحافة إنقاذ الولايات المتحدة من ترامب، إن مهمة الصحافة هي أن تقوم بالإبلاغ والتعمق والتحليل والتدقيق بأفضل ما تستطيع ودون خوف وفق تعبير صحيفة الغارديان البريطانية.

سبق وأن طالب كارل بيرنستاين الصحافي والكاتب الأميركي الذي ساهم في كشف تداعيات فضيحة «ووترغيت»، بضرورة مقاومة خطر وقوع الديمقراطية فريسة للاستبداد والديماغوجية وحتى الإجرام من قبل القادة المنتخبين والمسؤولين الحكوميين. لأنه حتى الديمقراطيات الكبرى ليست حارسا أمينا للحقيقة التي ينشدها الناس. وهو نفس السبب الذي دفع الكاتبة البريطانية سوزان مور إلى مواجهة «كيس الأكاذيب» السياسي، بتخلي الصحافيين عن «فكرة التردد» فالعالم يخوض حربا ذاتية بشأن المعلومات، والصحافيون ليسوا خارج هذه الحرب لأن الحقائق موجودة وفي الوقت نفسه يسقط الناس في الأكاذيب.

وهذا يعني أننا كصحافيين علينا ألّا نعزل أنفسنا في فقاعات أيديولوجية، وفق تعبير الكاتب تيم هارفورد «ونتعرض فقط لآراء الذين لديهم طريقة تفكيرنا نفسها» كي ننتصر على الرقيب الكامن في داخلنا قبل ترامب الذي يحاصرنا بهيئة شرطي.

تواجه الصحافة اليوم تهديدا اقتصاديا وجوديا في إعادة

ضبط مكانتها في العالم. بينما يتصاعد الجدل المتشائم بشأن الإعلام والسياسة والديمقراطية، هناك تردد أكثر من أيّ وقت مضى بشأن تعريف الصحافة، ولماذا هي مهمة.

يقول ألان روسبريدغر رئيس تحرير صحيفة الغارديان البريطانية السابق «إذا كان الصحافيون لا يستطيعون الاتفاق على فكرة عامة عن طبيعة المصلحة العامة والخدمة التي يطالبون الحكومات بتوفيرها للناس، فإن ذلك يعقد الدفاع عما نقوم به في عصر الإعلام الحر الأفقي، من المهم بالنسبة لنا كصحافيين أن نكون قادرين على تحديد وإعلان قيمنا وأهدافنا واستقلالنا».

من المفيد هنا، إعادة التذكير بكلام لرئيس حزب العمال البريطاني السابق إد ميليباند، عندما كان سياسيا في مواجهة الصحافة (ميليباند اليوم صحافي يقدم برنامجا حواريا إذاعيا من هيئة الإذاعة البريطانية «بي.بي.سي»)، كان يرى أنه ليس بمقدور أحد إحداث أي تغيير إذا كانت فكرة مثل إن كل السياسيين مرتشون وغير شرفاء، سائدة في كل ما تكتبه الصحف.

يصعب على ميليباند السياسي بالأمس والإذاعي اليوم، الاستمرار في الدفاع عن فكرته تلك، لأن الصحافة حسب آلن روسبريدغر لا تتسول أخبار التجسس كما يعتقد بعض السياسيين أو غيرهم.

الصحافة الحرة يجب عليها أن تفعل ما في وسعها للحفاظ على احترام الحقائق والأحكام المتوازنة.

الصحافة يجب أن تقوم بعملها دون خوف أو تهديد أو

ترهيب، مثل هذا الكلام نادت به صحيفة الغارديان البريطانية في دعـم الصحـف الأميركية في مسـاعيها للحفاظ على الموضوعية والحدود الأخلاقية، إزاء ما يمارسه الرئيس ترامب - مثل كثيرين آخرين في أجزاء من العالم أكثر خطورة - لتدمير الصحافة.

الصحافة العربية
لم تستوعب الصدمة

أي درس تمنحنا إياه حزمة المقالات التي اجتمعت في نقطة واحدة تسمى «الرئيس دونالد ترامب والصحافة»؟ عندما اتفقت مئات الصحف في مختلف دول العالم على يوم سمي «لسنا أعداء أحد» من أجل تفنيد الفكرة التي غرسها ترامب في عقول الجمهور ونجح إلى حد كبير في جعل الصحافة بذرة شيطانية، وليست الوسيلة المثلى لربط المجتمع بديمقراطية حرة من الأفكار والمعلومات.

ليس مهما أن نعرف من الذي وضع نقودا في صناديق شراء الصحف الأميركية في يوم السادس عشر من أغسطس عام 2018 عندما توحدت غالبية الصحف في كتابة مقال افتتاحي رافض لمبدأ العداء الذي وضعه الرئيس الأميركي مع وسائل الإعلام، لكن المهم بالنسبة إلينا الدرس السياسي الذي قدمته الصحافة الأميركية للعالم في ذلك اليوم.

المقالات الافتتاحية المنسقة المنشورة يوم السادس عشر من أغسطس في أكثر من مئتي صحيفة هي مثال معبر عن الآراء وليست الحقائق وفق الكاتب الأميركي نوح فليدمان، فمن خلال بث تلك الآراء بين الناس خلقت الصحف دورة إخبارية ذاتية،

تلك التي ركزت على الصحافة في حد ذاتها، بدلا من التركيز على انتقاد الرئيس ترامب لها.

إن هذا النوع من المعارضة الصحية هو ما يُبقي الديمقراطية في البلاد على قيد الحياة، ويشكل في فحواه واحدة من المسؤوليات الجوهرية للصحافة الحرة، وفق تعبير فليدمان.

هل نجرؤ في العالم العربي بعد هذا الدرس على إعادة ترتيب علاقة الصحافة بالحكومات، أو بمفهوم الدولة لدينا؟ ذلك السؤال القديم الذي غالبا ما يصاب بالوهن مع اختلاف سطوة الحكومات العربية وجبروتها.

يبدو هذا السؤال اليوم أكثر يقظة مع تلاشي فكرة الزعيم الأوحد الذي كان مستحوذا على المساحة الأكبر في صحافتنا العربية، بل إن وسائل الإعلام العربية لم تتساءل آنذاك «هل تغيرت اليوم؟» بالسوق والقراء إذا كان سوقها مفتوحا على طاولة الزعيم صباح كل يوم لإشباع غروره، وعدم إزعاجه بالأخبار السيئة.

ثمة بديل اليوم للزعيم الأوحد في صحافتنا العربية يسمى رجل الدين، يا للخيبة! مهما يكن من أمر فالحال تغير، والصحافة العربية اليوم قادرة على إعادة اختراع نفسها بعد مقتل الرقيب حارس البوابة وبوجود المواطن الصحافي المتحدي لسطوة الحكومات، الدرس الأميركي كان فرصة لإعادة الفكرة التاريخية عن علاقة الصحافة بالرئيس والحكومات.

لم يتم اختراع الحرية في الولايات المتحدة، بل هناك عدد

قليل من الدول التي كانت فيها أهمية الصحافة المستقلة منسجمة بشكل وثيق مع تاريخها الطويل. هذا التقليد الأميركي العظيم من الاحترام المدني للحقيقة وقول الحقيقة هو الآن تحت التهديد.

إن مهمـة الصحافـة هي أن تقوم بالإبلاغ والتعمق والتحليل والتدقيـق بأفضـل مـا تسـتطيع ودون خـوف وفق تعبيـر صحيفة الغارديان البريطانية.

وهـذا لا يعنـي أن الصحافـة الأميركيـة ليسـت لديها الكثير الأخطاء والانحياز والغرور وتلفيق القصص، بل إن بعض وسائل الإعـلام هـي منافذ حزبية تظهر اسـتهتارا عارما بالحقيقة وانقيادا أعمى لخطط الإدارة الأميركية.

لقـد تبنـى ترامب هذه الأمور فـي مهاجمته الصحافة لإقناع الناس بعدم جدواها، فمن لديه عشرون مليون متابع على حسابه في تويتر قادر على إيصال ما يود من دون حاجة إلى أي وسـيلة إعـلام أخـرى؟ لكـن الصحافـة الحـرة يجـب عليهـا أن تفعل ما فـي وسـعها للحفاظ علـى احترام الحقائق والأحـكام المتوازنة، الصحافة يجب أن تقوم بعملها دون خوف أو تهديد أو ترهيب، مثـل هـذا الـكلام نـادت به صحيفة الغارديـان البريطانية في دعم الصحـف الأميركيـة فـي مسـاعيها للحفـاظ علـى الموضوعيـة والحدود الأخلاقية التي يمارسـها الرئيس ترامب - مثل كثيرين آخرين في أجزاء من العالم أكثر خطورة - لتدمير الصحافة.

إذا كانت اسـتطلاعات الرأي تشـير في زمن ترامب إلى أن نصـف الناخبيـن الأميركيين يعتبـرون أن الصحافة صارت عدوة

الشعب، فلسوء الحظ لا توجد لدينا استطلاعات رأي يعتد بها في العالـم العربـي كي تثبت أن الصحافة العربية خادمة الحكومات! لكن من السهل أن يتحسس الجمهور العربي ذلك.

بعد أيام على مرور درس أخلاقي كبير للصحافة في مواجهة تقويضهـا انطلـق بمبـادرة من صحيفة بوسـطن غلوب الأميركية، بدت الصحافة العربية وبتشجيع من الحكومات، أنها لم تستوعب الصدمة التي وصلت إلى أغلب صحف العالم، وما زالت تدور حول قصور الزعماء وتمر خجولة على أسـوار الفسـاد الوزاري، وتغمض عيونها عن تغطرس ولصوصية رجال الدين.

لقـد وضعـت صحيفـة بوسـطن غلـوب تحـت افتتاحيتهـا التاريخية «الصحافة ليست عدوا لأحد» قائمة بالصحف من شتى بقـاع العالـم التـي تضامنـت مع فكرتها وكتبـت معبرة عن رأيها، لكـن ويـا للخيبـة لا توجـد في هـذه القائمة الطويلـة أي صحيفة عربية! ليس من أجل الصحافة الأميركية وعلاقتها مع ترامب، بل من أجل إعلامنا العربي الذي يسـير وهو نائم خلف الحكومات والممولين.

ترامب في لندن، يا لسعادة الصحافة!

تغريـدة الرئيـس الأميركـي دونالـد ترامـب في نهايـة زيارته الرسـمية إلـى بريطانيـا التـي زعم فيها أنه حظـي بمعاملة ودودة، هي أخبار كاذبة بامتياز.

لقـد كتـب ترامـب «لـم أكـن لأحظـى بمعاملة أكثـر ودا في المملكـة المتحـدة مـن جانـب العائلـة الملكية والشـعب» وهذا الكلام يشبه حضور مؤتمر لرجال الإطفاء حيث لا يستطيع أحد ذكر الماء!

وعندمـا أرغـم الصحافيـون ترامب على التعليق بشـأن عدم الترحيب به من قبل فئات واسـعة في المجتمع البريطاني، اعتبر ما يحدث في الشـارع من رفض لزيارته، ضمن الأخبار الكاذبة، وقال إنه شاهد آلاف الناس المحتفين به في شوارع لندن «وبعد ذلك سمعت أن هناك احتجاجات، وقلت أين هي الاحتجاجات؟ لا أرى احتجاجات، وعندما قدمت لم أر احتجاجا، فهي صغيرة للغاية، ويؤسفني أن اضطر إلى القول إن الكثير من هذه التقارير هي من قبيل الأخبار الكاذبة».

ولأن ترامـب مشـوش بشـكل دائـم، فإنـه لا يسـتطيع النظر إلى ما يراه الآخرون عندما يقول إنه شـاهد بدلا من ذلك «أناسـا

يلوحون بالأعلام الأميركية والبريطانية، كانت حالة مزاجية قوية وحبا، حبا كبيرا».

أنـا كصحافـي كنت يومها بين الناس، فحتى رجال الشـرطة البريطانييـن كانـت ملامحهم الحذرة توحي بتعاطف مع حشـود الرافضيـن لوجـود ترامـب في لندن، المدينـة التي تفتخر بتنوعها الإثني.

الحقيقـة التـي لـم يجرؤ على تناولهـا الرئيس الأميركي هي سـعادة الصحافة البريطانية بقدومه، فلم يحظ أي رئيس أميركي على مرّ التاريخ مثلما حظي به ترامب، فحتى فضيحة بيل كلينتون الجنسـية مـع المتدربـة مونيـكا بولونسـكي، لـم تحـظ باهتمـام الصحافة الشـعبية البريطانية بقدر الجدل المرافق لترامب نفسـه، لذلك كانت الصحافة البريطانية على مدار أيام زيارة ترامب أكثر سعادة، لكنها سعادة لا تمتّ بصلة للمعاملة الودودة التي زعمها ترامب.

من البساطة بمكان أن نكتشف الخبر المزيف الذي غرّد به ترامـب عـن «المعاملة الودودة» عندمـا نتأمل تراجعه عن وصف زوجة الأمير هاري، ميغان ماركل الأميركية المولد بأنها شخصية فظة! وقبل وصوله إلى بريطانيا، قال ترامب عندما أبلغته صحيفة صن بانتقادات ميغان له «لم أعلم ذلك. ماذا بوسـعي أن أقول؟ لم أكن أعرف أنها فظة».

وعاد ترامب ليقول إن وسائل الإعلام حرفت كلماته إذ أنه يشعر بحق أنها لطيفة جدا.

وقـال فـي مقابلـة مع قناة «آي.تي.في» التلفزيونية «قلت: لم أكن أعرف أنها فظة، لم أكن أشـير إلى أنها فظة ولكن قلت إنها كانت فظة تجاهي».

أليـس بإمـكان أيّ مـن الذيـن يمتلكون وعيا تحليليا بسـيطا تصنيـف هـذا التراجـع فـي الـكلام ضمـن الأخبـار المزيفة التي يحاربها ترامب نفسه؟

لـم تكـن قصـة ترامـب - ميغـان، الوحيـدة التـي جعلـت الصحافة البريطانية سـعيدة، بل إنها كانت تترقب بشـغف اللقاء الذي يجمعه مع نايجل فاراج، زعيم حزب بريكسـت الفائز في انتخابـات البرلمـان الأوروبي آنذاك «انسـحب فاراج من الحزب لاحقا وأسس حزبا أخر وبعدها ترك العمل السياسي»، فالشعبيون قصة صحافية بامتياز هذه الأيام لا يمكن أن تفقد تأثيرها، فكيف إذا التقى ترامب بفاراج؟

ووصـف فـاراج اللقاء مـع الرئيس ترامب بالجيد فهو يؤمن فعلا بالبريكست كما أن الرحلة إلى لندن أعجبته.

تحمل تلك الرسالة من الالتباس ما يكفي بالنسبة للشعبوي الآخر بوريس جونسون، لم يكن حينها رئيسا للحكومة البريطانية، إذ إنه اكتفى بمحاورة على الهاتف لمدة عشرين دقيقة مع ترامب وليس باستقبال في منزل السفير الأميركي في لندن كالذي حظي به فاراج.

وهنا قصتان ستلاحقهما الصحافة البريطانية دون كلل، لأن ما جرى في لقاء فاراج ومكالمة جونسون، ستبقى تفاصيلهما حية

لأسـابيع في بلد يعيش مأزق بريكسـت الذي دفع إليه جونسـون وفاراج.

هناك قصة صحافية ثالثة أقل أهمية لكنها ستكون حاضرة في الجدل أيضا، وتتعلق بالقوة السلبية التي يمثلها آنذاك زعيم حزب العمال المعارض جيرمي كوربين أثناء زيارة الرئيس الأميركي إلى لندن، بالنسبة إلى ترامب، مقابل قوة فاراج وجونسون الإيجابية!

فبعد أن رفض طلب عقد لقاء مباشر مع كوربين، عاد ترامب فـي نفـس المقابلة مع بيـرس مورغان بتلفزيون «آي.تي.في» إلى الحالة المشوشـة بالتعبير عن اعتقاد مرتبك بالقول «اعتقدت أنه من غير المناسب أن ألتقيه، ولكنني مستعد للقائه. بالتأكيد ليس لدي أي مشكلة معه».

تلك هي القصة السـعيدة بالنسـبة لوسـائل الإعلام في زيارة ترامب التاريخية إلى بريطانيا.

فقد ارتفعت التصنيفات بسبب إقبال المشاهدين على متابعة القنوات لرؤية الدراما السياسـية وهي تتبيّن أن السـبب في ذلك هو دونالد ترامب.

ألـم أقـل يا لسـعادة الصحافـة بزيارة الرئيـس الأميركي إلى بريطانيـا؟ لأن السـعادة تأتي أحيانـا من الأمور الكريهة في عصر ترامب!

جونسون يعني ترامب 2 بالنسبة للصحافة

لدينا قصة صحافية ستبقى متفاعلة على مدار سنوات اسمها بوريس جونسون سواء بصورته الشعبوية الطائشة أو بوصفه رئيس وزراء بريطانيا الأمر الذي يتطلب منه المزيد من الكياسة التي لم يعتدها.

وجونسون هو الجزء الثاني من دونالد ترامب، لأن مثل هذا الفيلم السياسي المشوق يستحق أكثر من المساحة المعهودة في وسائل الإعلام للأجزاء المتواصل عرضها من النسخ الشعبوية التي صار يزخر بها المشهد السياسي السينمائي.

يزعج صعود جونسون إلى رئاسة حزب المحافظين البريطاني والوصول إلى رئاسة الوزراء لخلافة تيريزا ماي، جيران بريطانيا. وهو سبب كاف يجعل من الصحافة التي تعيش كسادا إخباريا سعيدة لتطوير المزيد من القصص عن تاريخ وسلوك الرجل الذي تخرّج من أروقتها، فجونسون صحافي يعرف اللعبة بامتياز، لذلك هو سياسي غير متردد مع نظرائه، في حين يعجب المسؤولون بذكائه وبراعته، إلا أنهم يعدونه شخصا عديم المبادئ وشعبويا خطيرا، بيد أنه يمنح الصحافة القدر الذي يبقيها متشوقة إليه. لأنه يفهم السياسة بأنها التعريف الأمثل للإعلام.

قـال لصحيفـة صنداي تايمز عندما كنـت عمدة لندن، كنت «أحكـم أكبـر مدينـة في العالم». في إشـارة إلـى ثقته المطلقة في رئاسـة الحكومـة البريطانيـة. وهـو تعبيـر عـن حلم قديم كشـفته شقيقته رايتشل بقولها إنه كان يطمح ليصبح «ملك العالم».

ثمة قصة ترافق جونسـون الصحافي حدثت عام 2003 عند احتـلال العـراق مـن قبـل القـوات الأميركيـة، كان حينهـا موفدا من مجلة سـبيكتيتور، لكتابة مشـاهداته عن بلد اجتاحته القوات المحتلة، وبينما الصحافيون يرافقون الجنود الأميركيين في مشهد متكـرر، اختـار جونسـون التوجـه إلى منزل نائـب رئيس الوزراء آنذاك طارق عزيز بعد أن اجتاحه جموع الرعاع لنهبه (من استولى عليه ويسكنه اليوم، سياسي من فصيلة رجال الدين الرعاع) وبينما المنزل مستباح اختار جونسون أن يستولي على صندوق السيجار الجلدي الذي كان يحتفظ به السياسـي العراقي الراحل، بوصفه أثرا معبرا عن شخصيته.

بقيـت تلـك القصة مـن مقتنيات جونسـون الصحافي، لكنه عندما فاز في انتخابات رئاسـة بلدية لندن فتحت أمامه الأوراق التي لم تجف بعد، واتهمته الشـرطة البريطانية بالاسـتحواذ على قطعة بطريقة غير مشـروعة وبحثت ما إذا كان صندوق السـيجار «ذا أهمية أثرية أو تاريخية أو ثقافية أو علمية نادرة أو دينية» وما إذا كان نقل من العراق بطريقة غير مشروعة.

اعتبـر جونسـون القصـة حينهـا بالتافهة وهـي مضيعة لوقت الشـرطة، وزعم بأنه يمتلك خطابا من محامي طارق عزيز يبلغه

فيه أنه يرغب في أن «اعتبر صندوق السيجار هدية منه». مع أن المحامي تمنى عليه لو أخذ النسخ الفخمة من مذكرات الرجال الأقوياء الذين كتبوا الدستور الأميركي أو على الأقل سيرة جورج واشنطن، فهذه الكتب أكثر أهمية من صندوق السيجار، ولأن الرعاع لم يقدروا أهميتها لم يسرقوها أثناء نهب المنزل.

بقي جونسون المنحدر من أصول تركية ذلك الطائش وغير المسؤول بالنسبة للجمهور منذ أن عرف بين قيادات حزب المحافظين، وكان لا يغيب عن أعين الصحافة عند رئاسته لبلدية لندن، بل إن قصة سرقة دراجته الهوائية تحولت إلى موضوع للتهكم عليه بشأن الأمان في مدينة يترأسها، فاللصوص فضلوا دراجته للسخرية منه وليس لكونها ثمينة.

وجونسون وزير الخارجية «آنذاك» في حكومة تيريزا ماي غير مهادن، لا بالنسبة لرئيسة الحكومة ولا لوسائل الإعلام التي كانت تنظر إليه الممثل غير الكيس لوجه بريطانيا في العالم، إلى درجة أن سوزان مور الكاتبة في صحيفة الغارديان أطلقت عليه «كيس الأكاذيب» و«بوريسكوني» في إشارة إلى رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق سيلفيو برلسكوني، لأن فهمهما معا يعرّف السياسة هي الإعلام والرسالة هي الوسيط بينهما.

واتهم أندرو كوبر عضو مجلس اللوردات المنتمي لحزب المحافظين ومستشار الحكومة السابق لشؤون الانتخابات، جونسون «بالخواء الأخلاقي والشعبوية».

وقال في تغريدة له على تويتر «حقارة بوريس جونسون

تتجـاوز حتـى عنصريتـه التلقائيـة ومغازلتـه العابرة بالقدر نفسـه للفاشـية. إنه سـيؤيد حرفيا أي شـيء يجذب مؤيدين له في أي لحظة».

اليـوم قصـة جونسـون فـي وسـائل الإعلام برمتهـا أكبر من الوصـف الشـنيع الـذي أطلقـه كوبر، فبريكسـت مرض لا علاج له بالنسـبة للبريطانيين وللأوروبيين على حد سـواء، بينما خطى جونسون وصلت إلى 10 داوننغ ستريت، ليطبق بريكست، وتلك لعمري قصة صحافية لا تفقد تأثيرها لأوقات قادمة مشوقة.

فسـيصبح جونسـون مع مجموعة الطائشـين من السياسيين البريطانيين الرجل غير المسؤول الأول كما كان قد وصفه فرانك فالتر شـتاينماير، وزير خارجية ألمانيا السـابق والرئيس اللاحق، متسـائلا بعد التصويت على بريكسـت من الذي يرى أنه يسـتحق اللوم؟

قـال شـتاينماير حينهـا «جذب السياسـيون غير المسـؤولين البلاد إلى بريكسـت وبعد ذلك (...) خرجوا ولعبوا الكريكت، بصراحـة، أجـد ذلـك تصرفـا مثيـرا للغضـب». كان ذلك إشـارة واضحـة إلـى جونسـون، الرجل الذي كان يمثـل حملة الخروج من الاتحاد الأوروبي.

مـع كل الـذي يجري من درامـا التذمر والازدراء، الصحافة لا ترفـض القصـص التـي تـرى جونسـون ليس سـلبيا تماما. بل إنهـا موضـع ترحيـب بالنسـبة إليهـا لمزيد من الجدل المشـوق، فبعض الدبلوماسيين الأوروبيين يرون أن الأسلوب المرح لوزير

الخارجية البريطاني السابق ورئيس الحكومة لاحقا، كان ممتعا ويخفف من ملل الاجتماعات الطويلة المتعددة الأطراف. لكنه لم يصل إلى نفس القدر من عدم الجدية والمخاتلة الساخرة التي كان يتميز بها معمر القذافي مثلا! لقد وصفه مستشار لأحد كبار المسؤولين في بروكسل بأنه «مراهق بالغ». وقال المستشار لقد كان من السهل «رؤية الفظاعة والقسوة» لكن «من الصعب رؤية الجمال».

ومن حسن حظ الصحافة في العالم برمته أنها سترى أن الفظاعة والجمال قصة بمواصفات واحدة في رئيس الوزراء البريطاني لأن جونسون هو الجزء الثاني من فيلم دونالد ترامب.

الديمقراطيات الكبرى ليست بريئة من الأخبار المزيفة

عندما يقترح الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، إنشاء «وكالة أوروبية لحماية الديمقراطيات» من الهجمات الإلكترونية والتلاعب والمؤامرات التي صنعها العصر الرقمي، فإنه لا يمكن أن يبرئ تلك الديمقراطيات من التواطؤ والتلاعب والمؤامرات، لأنها ما زالت مستمرة في صناعة وترويج الأخبار المزيفة.

ماكرون نفسه اتهم نظيره البرازيلي جاير بولسونارو بالكذب! في بيان يحتفي بالكذب أمام وسائل الإعلام بوصفه مصدرا لاختلاف الآراء، عندما أعلنت الرئاسة الفرنسية أنّ ماكرون يعتقد أن نظيره البرازيلي «كذب» بشأن موقف بلاده من التغير المناخي، ما من شأنه جعل فرنسا تمانع في هذه الظروف اتفاق التجارة بين الاتحاد الأوروبي ودول أميركا الجنوبية.

هذا أمر لا جديد فيه، فالسياسيون الأميركيون والأوروبيون عديمو الضمير يسهمون بطريقة أو بأخرى وبلا خجل في الأخبار المزيفة، وفق تعبير توني باربر الكاتب في صحيفة فاينانشيال تايمز. هل من الضروري هنا العودة إلى جملة سبق وأن كتبتها «السياسيون الكبار، كذابون كبار»؟

يمكن عد دونالد ترامب المحارب الأول للأخبار المزيفة،

فهذا المصطلح لا يغيب عن كل ما يغرد ويصرّح به، لكنه في حقيقة الأمـر يحـارب الأخبـار المزيفة بأكبـر كذبة يبتكرهـا لإرغامنا على تصديقه عندما يخفي أنانيته السياسية ويصر على التصرف كشعبوي، ويحـول العبـث والتهـور والصلافـة إلى منهج سياسـي يضفي عليه وصفة الانتصار. وهكذا يتوغل ترامب في الترامبية أكثر!

ترامـب صحافـي يلفـق الأخبـار بوظيفـة رئيـس الولايـات المتحـدة الأميركيـة، يكفـي القـول إنـه يحظى بمتابعـة الملايين لحسابه على تويتر من شتى دول العالم.

بوريـس جونسـون كاذب بامتيـاز عندمـا يكـرر فيديوهـات وعـوده للبريطانييـن علـى حسـابه فـي تويتـر، بنظـام صحي آمن ومصانـع مزدهـرة واقتصاد مسـتقر بعد خـروج بلاده من الاتحاد الأوروبي، كاذب لأنه يسـمح لنفسـه فقط بالكلام والإعلان في أسـلوب دعائـي قديـم، لكنه يرفض إجراء الحـوارات الصحافية منذ رئاسته الحكومة البريطانية، يفضل ببساطة أن يجيب على ما يختار أن يطلقه على نفسه من أسئلة ويتهرب من أسئلة الصحافة.

لدينا على مدار التاريخ المعاصر أمثلة جيدة عن أخبار كاذبة بامتيـاز صنعتهـا كبـرى الديمقراطيـات فـي العالـم. يمكن تذكير الرئيس الفرنسـي بها وهو يريد إضافة مؤسسـة بيروقراطية أخرى للاتحـاد الأوروبـي، وظيفتها المعلنة محاربة المؤامرات وحماية الديمقراطيات.

في كل الذي حصل في الأكاذيب السياسية لا توجد لحظة قريبـة للحسـاب، لا لوسـائل الإعـلام الكبـرى ولا للسياسـيين،

فحتـى الاعتذار بالنسـبة إليهم هـو محاولة لتجديد الأكاذيب، لم تعتذر نيويورك تايمز مثلا عن أكبر كذبة معاصرة متعلقة بأسلحة الدمار الشامل التي زعمت بريطانيا والولايات المتحدة أن العراق يمتلكها وكانت المسوغ الأكبر لاحتلاله.

بينمـا يجـد صحافـي بريطانـي على درجة مـن الأهمية مثل باتريك كوكبيرن، ما يبر ذلك مدافعا عن ترويج الأكاذيب!! ويرى أن الصحافة لا تتحمل نتائج قصة نيرة الكاذبة «سبق الإشارة إلى تفاصيلهـا»، لأن دورهـا النقـل ويصـل أحيانا إلى التشـكيك وفق أفضل الأحوال، ومن السهل أن يوضع اللوم على ضباب الحرب آنذاك وفق كوكبيرن.

تبرئة الصحافة من كونها هامشا للمصالح السياسية الكبرى عنـد كوكبيـرن، تجد معادلا مختلفـا عند توني باربر عندما يتعلق الأمر بالديمقراطية نفسـها، فهي مثل أجهزة الكمبيوتر الشـخصية وجسم الإنسان، يجب إصلاح الديمقراطيات من وقت إلى آخر حتى تعمل بشكل جيد.

ذلـك مـا يجـب أن يـرد بـه علـى مقتـرح ماكـرون لحمايـة الديمقراطيـة، وفـق تفسـير باربـر، فالملاييـن مـن الأميركييـن والأوروبييـن يشـعرون بالعجـز وأنهـم غيـر ممثلين فـي الأنظمة السياسية والاقتصادية التي تستجيب بشكل غير كاف لاحتياجاتهم.

هنـاك انعـدام ثقـة بالمؤسسـات التـي كانـت تحظـى ببالـغ الاحترام منتشر على نطاق واسع. وأصبح من المألوف التحدث عن «الركود الديمقراطي» أو ما هو أسوأ، في المجتمعات الغربية.

عندما يتحدث الرجال الأقوياء
على الصحافيين التشكيك بهم!

كان مـن المناسـب العـودة إلـى مـا يسـمى «الاقتباسـات المجهولـة» مـن التاريـخ في وسـائل الإعلام، والجدل المسـتمر عليهـا، لأنهـا فـي النهايـة لا تمثـل أكثر ما كان يعتقـد وما يعتقد، وما حدث وما يكون قد حدث بالفعل أو سـيحدث، أو ما يتوق لـه الـرأي العـام، أو يفكر به، فالحقائق سـواء وجدت في الوثائق أو لـم توجـد، لا يـزال يتعيـن على المؤرخ ومـن بعده الصحافي معالجتها قبل أن يتمكن من استخدامها.

ومع التأثير الهوليوودي على رواية الرئيس الأميركي دونالد ترامب لمقتل زعيم تنظيم داعش الإرهابي أبوبكر البغدادي، يبدو أن القـرن الحـادي والعشـرين سـيكون موضـع جدل اقتباسـات معاصـرة، فعندمـا يتحـدث «الرجـال الأقويـاء» فـإن الكثيـر مـن الصحافييـن ينقلـون كلامهـم ببسـاطة، ولا يتصرفون كمحاورين منتقدين، وإنما كقنوات مريحة للحكومات والزعماء. دعك من التبجّحـات التـي لا يصدقهـا السياسـيون أنفسـهم، ولا يمتلكون القـدرة للدفـاع عنهـا، لأن الفكـرة تنطـوي علـى أن السياسـيين لا يدفعـون أكثـر مـن ضريبـة الكلام المجرد، وعلـى الصحافيين التشـكيك بهم من أجل الحصول على الحقائق في هذا الكلام.

فعندما تكـرر وسـائل الإعلام الاقتباسـات المجهولة دون تردد، فإنهـا تصبـح عامـل تمكيـن للحكومات بينما يجـب أن تتحداها للاتسـاق مـع جوهـر الصحافـة، وفـق غـاري يونـج الكاتب في صحيفـة الغارديـان الـذي يطالـب الصحافييـن بـألّا يكتفوا بدور الببغاوات الناقلة من المصادر الكبيرة.

الفكرة السائدة أن كل ما يقوله السياسي يصبح خبرا، ليست فكـرة مفيـدة دائمـا للصحافـة عندما يتم نقل هذا الـكلام بطريقة منمقـة ومهذبـة، لكنها غير مصفاة من شـوائب «المبالغات»، كما لو أن عمل الصحافة يقتصر على الحصول على الاقتباس وإعادة توزيعه، ولا يمتد إلى وضعه في سياق الفهم والتحليل والإشارة إلى الثغرات الكامنة فيه والتحقق ممّا ورد فيه بمثابة حقائق. أما الأخطر من اعتبار وسـائل الإعلام أن كل ما ينطق به السياسـيون خبـر، فيكمن في سـريان كلام السياسـيين كحقيقـة متداولة على ملايين الحسابات على وسائل التواصل الاجتماعي.

صحيـح أن الرئيـس الأميركـي دونالـد ترامب مصـدر كبير للأخبـار، وأيضـا 10 داونينغ سـتريت مبنـى الحكومة البريطانية، لكـن التوقـف عنـد ذلـك وعـدم وضـع كل ما يصـدر عن هذين المصدريـن الكبيريـن تحت مجهر الصحافي، أمر لا يكون مفيدا لجوهر الصحافة نفسها، قبل أن يكون ضارا للجمهور.

المرشـد الإيرانـي علـي خامنئي مصـدر آخر على درجة من الأهمية، لكن التعامل مع تصريحاته بوصفها أخبارا يعني الهبوط إلى العاطفة وتجاهل الحقائق ومبدأ الديمقراطية الحرة في تبادل

المعلومات، فخامنئي لا يؤمن بأكثر من تحويل الخبر - إن وجد - إلى فكرة غيبية لتحقيق ما يريد أن يحققه، لهذا يصبح مثالا جيدا بالنسبة للصحافيين للتعامل الحذر في كل ما يصدر عنه.

لكن المفارقة تكمن في سطوة الحكومة عندما يتعلق الأمر بمصدر آخر للأخبار يخصّها، فالحكومات تنظر إلى فيسبوك مثلا بوصفه «أكبر مراهقي العالم خطرا» فما زال في عقده الثاني، إذ يأتي أكبر تهديد لفيسبوك في حال قررت الحكومات التعامل مع الشركة على أنها ناشرة وليست منصة، ما يجعلها مسؤولة قانونيا عن كل كذبة أو تشهير تنشره الشركة. حينها «سيتم دفن مقرها الممتد في مينلو بارك، في كاليفورنيا، تحت عاصفة من الدعاوى القضائية» وفق تعبير الكاتب جدعون راشمان في صحيفة فاينانشيال تايمز، الذي يرى أن الخط الفاصل بين حرية التعبير والتحريض على العنف وبين السياسيين الشرعيين ومؤيدي الكراهية، أمر متنازع عليه لا محالة.

لكن كل هذا الكلام لا يجعل من الحكومات، وحتى الديمقراطية نفسها، مصدرا رحيما ومسؤولا وأمينا على حرية الصحافة، عندما تريد تمرير معلومة تخدم مصالحها وتخفي كما هائلا من المعلومات التي يفترض أن تخضع لحرية تداول المعلومات.

صحيح أن الحكومات لم تخترع وسائل التواصل الاجتماعي، لكن وسائل الإعلام ستسقط في فخ ساذج عندما تعتمد على الحكومات ووسائل التواصل كمصدر إخباري من

دون تدقيق عميق لتشكيل ما وصفه أنطونيو غرامشي بـ «الفطرة السليمة»، كما يجدر بالصحافيين أن يلقوا نظرة انتقاديه على الدور الذي تلعبه الصحافة في صناعة السياسة.

كثيرا ما يتم تداول الجملة الشهيرة لجوزيف غوبلز، وزير الثقافة النازي الشهير عندما يتحسّس مسدسه! لكن ما قاله عام 1933، نراه يتجسد فعليا اليوم بعلاقة الحكومات مع وسائل الإعلام، دعوني أعيد عليكم جملة غوبلز بعد ثمانية عقود من نطقها «الهيكل الحديث للدولة الألمانية يمثل أعلى شكل للديمقراطية، إذ تمارس فيه الحكومة سلطتها بشكل قانوني، بفضل تفويض الشعب، ودون أي إمكانية لتدخل برلماني يصادر إرادة الشعب، ويجعلها غير فعالة».

ومع تزايد الهجمات على الصحافيين، تجد المهنة نفسها في تقاطع مع الحكومات المستبدة والميليشيات المتطرفة والمال الفاسد، فمن المهم أن تدافع وسائل الإعلام وأولئك الذين يعملون فيها عن قيمها لتحول دون إصابتها بالوهن والارتخاء عن التشخيص الذي ينتظره الجمهور، فيما هو صار شريكا إعلاميا فاعلا عبر المواطن الصحافي.

لذلك ينصحنا غاري يونج بوصفه صحافيا أن نكون صادقين بشأن أوجه القصور لدينا من أجل الدفاع عن قيم ارتضينا أن نكون مسؤولين عنها في مهمتنا الصحافية. عندها فقط سنكون أكثر فاعلية عندما نتحدى الأقوياء سواء في الحكومات أو خارجها، وليس عندما نضع أنفسنا بينهم.

صحافي بهيئة ديكور حكومي

من قال لا يوجد نموذج «الصحافي الديكور» بين مراسلي البيت الأبيض؟ ذلك أمر غير صحيح.

بإمكان الصحافيين إدراج قائمة طويلة من هذا النوع من الصحافيين الذين عادة ما يكونون مراسلين ثابتين في مقرات الحكومات العربية وناقلي نشاط السياسيين، لكن مثل هذا النوع موجود أيضا بين مراسلي البيت الأبيض في أكثر بلدان العالم ديمقراطية التي تُقدر وتُعلي من شأن الصحافة.

من المفيد هنا وأنا أدافع عن فكرتي أن أعيد ثانية استعارة كلام المراسل السابق لصحيفة نيويورك تايمز راسل بيكر بقوله «لا يوجد صحافيون يغطّون البيت الأبيض، بل يوجد صحافيون يغطيهم البيت الأبيض». بينما أعرض لفكرة هاميلتون نولان أحد الكتاب الأميركيين في صحيفة الغارديان البريطانية، عندما يعرض نصيحته الثمينة للصحافيين من أجل ألا يكونوا ديكورا حكوميا.

الوظيفة الصحافية الأكثر شهرة هي أن تكون مراسلا في البيت الأبيض، لكنها هي الأسوأ أيضا في أحسن الأحوال، حسب وصف نولان الذي لا يرى أن الصحافي المخلص سيكسب الكثير من المال مقابل عمله، وأن أهم القصص التي يجتهد لنشرها ستنسى في غالب الأحوال مع الأيام وإن حققت

انتشارا في حينها، لذلك عليه أن يكون مستعدا للإحباط واليأس الذي سينتابه لأنه ببساطة صحافي مخلص مع أن مجده اللاحق سيكون حب أناس لن يقابلهم أبدا، وليس مجرد ديكور حكومي تحت تسمية صحافي.

جوهـر الصحافـة هـو القصـة التـي نصنعهـا، وكل ما عدى ذلـك مجـرد بريق زائف، وكلما أسـرع الصحافيون إلى فهم هذه الفكرة كلما كان الحال أفضل من أجل الكرامة الشخصية والقيم الصحافية التي يعملون من أجلها، لأن الصحافي يأمل في النهاية أن يكـون موضع احترام وكسـب ثقـة عالم اليوم ومثالا للأجيال القادمة وهو يؤرخ للحقيقة.

موهبـة الصحافـة حسـب تعبيـر هاميلتـون نولان هـي الفرصة المتاحة لسرد قصص الأشخاص الذين يتوق الناس لرؤيتهم يغيرون الحيـاة إلـى الأفضـل، لهـذا يطالـب الصحافـة بتجنـب الكتابة عن الحكومات والهيئات التي تعتقد أن وسائل الإعلام وجدت من أجل أن تهدد قبضتها الصارمة على السلطة، وليس منع التغول والفساد.

لذلك من الأفضل أن ترسـل وسـائل الإعلام مراسلين لتغطية أحوال المشردين والأناس البائسين، أفضل من المؤتمرات الحكومية للمسؤولين التي لا تقول شيئا مفيدا أكثر من الكلام المراوغ. فمن شـأن ذلك أن يوفر على الأقل الأمل في الحصول على نظرة ثاقبة حـول مـا يحـدث فـي البلاد. وليس ممارسـة دور الناقـل لما يعلنه مسؤول حكومي لا يدفع غير ضريبة الكلام المجرد.

توجد في الصحافة اليوم، لسـوء الحظ، فجوة واضحة بين أولئـك الذيـن يـرون أنها وجـدت مثلما توجـد وظيفة الممرض

الحريـص علـى صحـة الناس ورجل الإطفاء الـذي لا يفكر بأي ثنـاء وثمـن وهـو يجـازف من أجـل إطفاء النيران وإنقـاذ الناس، وأولئك الذين يرون في الصحافة مهنة استعراضية تنتظر التصفيق قـد تمكنهـم من التقـاط الصور مع أشـخاص مهمين والحصول على صفقة كتاب في يوم من الأيام.

سـيخبرك الصحافيـون المخلصون بمـا يريدون الكتابة عنه، بينمـا سـيخبرك الآخـرون بمـكان عملهم وأناقتـه وبهرجته. هذا الأخيـر، للأسـف، هـو الشـائع اليوم. مـع ذلـك إن العالم مليء بالكتاب والمراسلين الممتازين الذين لم يحصلوا على فرصتهم من أجل إجلاء الغبار عن الحقيقة.

يعتقد هاميلتون نولان أن الصحافيين الحقيقيين لديهم الفطرة السليمة الكافية لمعرفة أن الأشخاص المسؤولين يكسبون المزيد من المال ولديهم المزيد من القوة، ولكن من الواضح أنهم ليسوا أكثر ذكاء. هذا لا يمكن أن يستمر إلى الأبد.

ويعتـرف خـلال تجربتـه فـي العمل على مـدار أكثر من عقد في الصحافة الأميركية بوجود عيوب في الصحافة تسـبب الغثيان للجمهور، عندما تنشر بشكل مستمر الأكاذيب والمبالغة والأخطاء.

مع ذلك لا يبدو هذا الصحافي متشائما أكثر مما ينبغي لأنه يشـجع من يرون في أنفسـهم بذرة صحافي فعليهم أن يتمسـكوا بها، في خضم هذا التنافر المعرفي، حيث تقوم اليوم مؤسسـات إعلاميـة كبـرى بدعم مـن رؤوس الأموال الكبيـرة والحكومات بتحطيم العالم بدلا من إصلاحه.

تشريح صورة خارج تلفزيون الواقع



سبق وان كتبتُ دونالد ترامب لعبة صحافية لا تمل، كان ذلك والرئيس الأميركي مزهوّ في دخوله الأول إلى البيت الأبيض، وبالفعل صدق توقعي، فاللعبة مستمرة ولم تفقد متعتها بالنسبة لترامب، لأنه أضحى رئيس أقوى دولة في العالم بوظيفة مغرّد! وتلك أهم الشروط التي صنعها لنفسه وهو «يشيطن» وسائل الإعلام التقليدية.

الصحافة بالنسبة لترامب مجرد أخبار زائفة، بينما ترامب بالنسبة لوسائل الإعلام أكثر من ذلك، ولهذا لا أتوقع غياب صورته حتى وإن لم يفز في دورة انتخابية رئاسية ثانية.

الصحافة في مجملها لا تتعاطف مع سلوك ترامب السياسي، لكنها لا تريد أن تغادر اللعبة التي وضعها الرئيس لنفسه أشبه ببرنامج من تلفزيون الواقع يفضل أن يديره على أجهزة العالم الذكية، وإن كان يستخدم هاتفه بدل جهاز التحكم بالتلفزيون.

ولأن اللعبة لم تفقد متعة التشويق، بل تزداد يوما بعد آخر، فإنه صار من مهام وسائل الإعلام تحليل تحركات وتغريدات ترامب وفق قواعد علم النفس السلوكي، ومراقبة تصريحاته وعدم تركها تمر من دون التقاط ما يجعلها ذات أهمية ومثيرة بالنسبة للجمهور.

ذلك ما حصل مع صورة التقطتها عدسة المصور باتريك سيمانسكي من وكالة أسوشيتد برس لترامب بدا وكأنه خارج تلفزيون الواقع السياسي الذي عرف به.

إنه في هذه الصورة ليس ترامب المعتاد، حسب تعبير الكاتب هوغو ريفكيند في صحيفة التايمز البريطانية، الذي قدم قراءة في تحليل مضمون الصورة، فترامب لن يكون ترامب من دون الجماهير الغفيرة المحيطة به في الصالات والملاعب، حتى وإن كان في غرفة نومه يرسل التغريدات النارية! لنا أن نتخيل أكثر من مئة مليون متابع له، هؤلاء جماهير يحسن بهم ترامب ويتشوق لمخاطبتهم.

لنتذكر جملته الشهيرة وهو يصف الصحف بأنها مجرد أدوات لنشر الأخبار الزائفة، معبرا عن عدم حاجته لها لأنه يتعامل مباشرة مع الملايين من المتابعين على مواقع التواصل.

صورة ترامب في وكالة أسوشيتد برس مدعاة للتحليل أكثر من أي تصريح سياسي له لحد الآن، فهذه الصورة لا تظهر ذلك الرئيس الساحر ببدلته الثمينة وربطة عنقه الحمراء كعلامة عن الثراء. بل مجرد لاعب بيسبول مهزوم عاد في وقت متأخر بعد تظاهرة انتخابية مخيبة للآمال قاطعها الجمهور، والبعض منهم تعمد اقتناء تذاكر الحضور ولم يذهب لتطبيق سياسة المقاعد الفارغة وإفشال حملة ترامب الانتخابية. «فشل لاحقا في الفوز بالانتخابات الرئاسية».

كما تُظهر الصورة أن الرئيس الأميركي لديه عدو يتجمهر أكثر فأكثر، لا يمكنه هزيمته بالتخبط، وهو ينزل من المروحية الرئاسية بربطة عنق محلولة على كتفيه، وماسكا بقوة قبعة لاعب منهك.

لقد كان صموئيل بكيت يترك ربطة عنقه بلا شد، كذلك ألبير كامو، مثلما فعل آرثر ميلر في تعبير عن زواجه الفاشل من مارلين مونرو. لكن ترامب في هذه الصورة لا يتشبه بأي من هؤلاء المدهشين في صناعة الأحلام المعبرة، وهو يترك ربطة عنقه حرة على كتفيه، لأنه أصلا يرى في نفسه ممثلا للنخب العالية وليس لتلك الهموم الأدبية المستعارة التي يمثلها ميلر وبيكيت وكامو وسواهم. لذلك بدا مثل مقامر عائد من خسارته، أو بتعبير هوغو ريفكيند أشبه بـ«رجل أعمال مسجون تم إطلاق سراحه بكفالة ولم يتذكر ربطة عنقه المسترخية على صدره كي يعيد شدها»!

الصورة بلا شك باهرة في استمرار لعبة الصحافة مع ترامب، فلو عاد منتصرا من حملته الانتخابية الأولى بعد إنهاء الحجر الصحي لبدا أشبه بالممثل براد بيت وهو يمشي رابط الجأش بعد أن قضى على عدوه. لكن ترامب بلا جمهور من المعجبين وتلك فكرة ميتة لا يقبلها عقل الرئيس.

إن قراءة أولية لهذه الصورة تجعل أغلبنا يتفق مع هذا الكلام وليس فقط تحليل المضمون وفق الرؤية الصحافية.

وبالطبع هناك من لا يرى ذلك، ومن الصحافيين أنفسهم أيضا، هل تتذكرون دفاع الصحافي فيليب ستيفنز وهو يعالج الجانب السار في شخصية دونالد ترامب! «مر في استعارة سابقة»، فيرى أنه ليس شخصا سيئا تماما، وربما هناك وجاهة في طريقة تفكيره.

تأمل كيف يجد ستيفنز مسوغا له عن كره النساء؟ «حسنا، بالتأكيد، تعد آراؤه المتعلقة بالنساء كريهة، لكن بصراحة نحن نسمع الكثير من الحديث نفسه في معظم غرف خلع الملابس للرجال»، لا أعرف ماذا سيقول اليوم بعد أن شرع الأميركيون إعادة ملفات العنصرية.

سنجد آخرين ممن يؤمنون بمثل هذا الكلام، لكنهم يتناقصون يوما بعد آخر ولا يبدو أنهم يشكلون جمهورا يسعد ترامب نفسه، ملايين المتابعين له على مواقع التواصل ليسوا جميعهم مشجعين على مدرجات فريق ترامب، إنه مجرد جمهور يتوزع على مدرجات الداعمين والخصوم.

تلـك الصـورة الكئيبـة لترامب بعد نهاية تجمـع انتخابي غير مثمر، تدفع الكثير من منتقدي الرئيس الأميركي إلى توقع أنها بداية النهايـة، وقـد يكونون علـى حق، لكننا كمتابعين لعروض تلفزيون الواقـع المسـتمرة حـول ترامـب ما زلنـا لا نفهم ما سـتكون عليه بداية النهاية. فيما يستمر السؤال الكبير عما إذا كان ترامب يدرك تداعيات المسار النادر الذي يتخذه في تاريخ السياسة الأميركية.

هذا هو أصل مقولة الصحافية سالينا زيتو مؤلفة كتاب «ثورة كبرى داخل التحالف الشعبوي لإعادة تشكيل السياسة الأميركية» التي تقول إن مؤيدي ترامب يأخذونه «على محمل الجد، ولكن ليس حرفيا» بينما يفعل منتقدوه العكس.

مـع ذلـك مـن المفيد أن نعود مرة أخرى إلى كلام المؤرخة دوريس كيرنز غودوين، إحدى أشـهر كتّاب السـير الرئاسـية في الولايات المتحدة، بقولها إن سلوك ترامب يشير إلى حاجة تركيز الحملات الانتخابية بشـكل أكبر على المزاج العام للمرشـح في المستقبل.

وقالت «إنه ربما كان أبراهام لينكولن عرضة لنوبات غضب لكنـه وجـد سـبلا للاسـتحواذ على مزاجـه»، معتبـرة أن النوبات العامة التي تصيب ترامب، والافتقار إلى التواضع، وعدم القدرة على السيطرة على انفعالاته، هي أمور نادرة الحدوث في التاريخ الأميركي.

ومع ذلك نجد من يراها حلا لمعضلات تحل على العالم.

الانتخابات الأميركية أعادت الأهمية لوسائل الإعلام التقليدية

إذا كان التاريـخ سـيكتب يومـا مـا بأننا عشـنا العصر الأكثر أورويليـة، لأن الحـرب علـى الحقيقة بلغت ذروتها، فإن التاريخ نفسه وهو يفكر في وسائل التواصل الاجتماعي بكونها الوسائط المعاديـة لطبيعـة المجتمـع السـوية. سـيذكر أيضـا أن انتخابات الرئاسـة الأميركية 2020 قد أعادت الأهمية إلى وسـائل الإعلام التقليدية.

كانـت هنـاك كذبة، اثنتان، والثالثة آتية في الطريق حتما، بل أكاذيـب متصاعـدة ومسـتمرة، إلا أن الجمهور عرف أن الحقيقة تكمـن فـي غيـر مـا هو متاح علـى مواقع التواصـل. بينما تبوّأت اسـتطلاعات الـرأي أعلـى مكانـة للوظائـف المملـة علـى هـذا الكوكب.

وتعرضت الصحف المرموقة والقنوات التلفزيونية لضغوط بث مزاعم الفوز قبل أوانها سواء من دونالد ترامب أو جو بايدن على أساس أنها «أخبار»، مع إدراكها أن نشرها يرقى إلى مستوى التضليـل الخطيـر الـذي يمكـن أن يثيـر العنف ويقـوّض العملية الديمقراطية.

لنـا أن نتخيـل جميعـا ذلك؛ كان فريق غرفـة الأخبار يعيش

تلك الفكرة طوال الليل دون أن يتخلى عن أقداح الشاي والقهوة بوصفها مساعدا أمينا لعدم فقد التركيز.

لكن لم تواجه وسائل التواصل الاجتماعي مثل هذا الضغط، لسبب متعلق بتراجع حساسيتها الإخبارية وضعف مسؤوليتها.

ولم يكن لدى المؤسسات الإخبارية عالية المسؤولية أي عذر لعدم الاستعداد لمثل هذا الاحتمال، وفق فيفيان شيلر المديرة الرقمية السابقة لمحطة «أن.بي.سي نيوز»، فعناوين مثل «ترامب يعلن النصر» على وسائل التواصل الاجتماعي، يمكن أن تشكل الرأي العام وتصبح سلاحا ضد الحقيقة والثقة في العملية الديمقراطية.

الأميركيون كانوا يعتقدون أن فشل الديمقراطية تحتكره دول أخرى، لكن الواقع أن الديمقراطية، بحسب الكاتب غيديون راكمان، يمكن أن تفشل في أيّ مكان. فهي لا تقتصر على التصويت، بل تتطلب صحافة حرة وخدمات عامة قوية ومحاكم مستقلة ودستورا، وأهم من ذلك كلّه الثقافة الديمقراطية التي يقبل فيها الخاسرون نتيجة الانتخابات. ففشل «الديمقراطية» على سبيل المثال التي شرعها الاحتلال الأميركي في العراق مثّل مأساة للعراقيين وحدهم، ولكن فشل الديمقراطية في الولايات المتحدة سيكون مأساة عالمية.

وهكذا كانت الصحافة تعمل بجدّ عندما عرف الجمهور الخاسر الأكبر قبل أن تقفل صناديق الاقتراع، كانت الديمقراطية والحقيقة والثقة، الولايات المتحدة كانت الخاسر الأكبر بغض

النظر عن خسارة دونالد ترامب وفوز جو بايدن.

بقي العالم برمته يدور على أجهزته الذكية بحثا عن معلومة غائبة أو متوقعة، كانت وسائل التواصل الاجتماعي تمارس الضغط على غرف الأخبار في وسائل الإعلام التقليدية لإخراج الأمور بسرعة وإن كان على حساب الثقة والدقة. لكن الصحافة تعلمت الدرس هذه المرة؛ من المهم أن تكون على حق أكثر من أن تكون أولا.

لذلك تعاملت وسائل الإعلام بحذر شديد مع فكرة الحسم والفائز في مشهد انتخابي سام، معيدة الثقة لصناعة الأفكار وتحليل المعلومات التي تفتقر إليها وسائل التواصل الاجتماعي.

في المقابل فشلت كبرى المنصات، فيسبوك وتويتر، حيث تتفشى العواطف والتكهنات، بالضغط على وسائل الإعلام لأنها لم تقدّم أكثر مما كان متوقعا منها، فيما التحذيرات التي رافقت انتخابات سامة لم يشهدها التاريخ الأميركي جعلت تلك المنصات تتراجع خطوة إلى الوراء.

وهكذا صارت مقاييس النجاح الإخباري في تلك الانتخابات التي شدّت العالم، مختلفة، ولم يعد ينتهي النجاح عند فيسبوك وإن كان هناك أكثر من ملياري مستخدم. كانت صحيفة نيويورك تايمز على سبيل المثال تقدم قراءات ذكية في صناعة الرأي وتستكتب متخصصين أكثر من علوم السياسة والقانون والفكر، كان ثمة من يدلي برأي يمنح القراء في مختلف دول العالم فرصة تأمّل المشهد الأميركي الملتبس بعمق.

لقـد فعلـت صحيفة الغارديان البريطانية أكثر من ذلك وهي تشد ملايين القراء إلى محتواها.

وهكـذا جعـل ترامب وسـائل الإعـلام التقليدية عظيمة مرة أخـرى، ليـس لأنه حـرض عليها الناس عندما شـيطنها ووصفها بالبـذرة الفاسـدة، لكنـه بالجـدل الذي يثيره عـن الحقيقة والثقة، دفـع الجمهـور إلى البحث بجد عـن الحقيقة، وفي كل الأحوال لـم يجدها في فيسبوك أو تويتر.

التغييـر فـي النظـر إلـى وسـائل الإعـلام التقليديـة ابتدأ من الانتخابـات الرئاسـية الأميركية، فقـد كان الصوت الواضح يبرز من صحافة أكثر تنوّعا وتوغلا في الأروقة السياسـية غير المرئية للجمهـور، الأمـر الـذي دفـع الكثير مـن المراسـلين والمحللين فضلا عن المتابعين للإشارة إلى علامات التغيير.

فـي عـام 2016 كان عـدم فهـم صعـود ترامـب أحـد أهـم الإخفاقات التاريخية للصحافة، لذلك كان تكرار مثل هذا الخطأ سواء بتوقع فوز ترامب أو هزيمته يبدو أسوأ من بقاء ترامب نفسه في البيت الأبيض بالنسبة إلى وسائل الإعلام.

تقـول إيفليـن دويـك الأسـتاذة فـي كليـة الحقـوق بجامعة هارفـارد «نحـن فـي هذا عالـم جديد شـجاع يتميـز بالاعتدال في المحتـوى الإخبـاري الـذي يقـع خـارج النظام الثنائـي الخاطئ للإزالة والإلغاء».

لذلـك كانـت الانتخابات الرئاسـية الأميركية انعطافه فاصلة في التاريخ الإعلامي، حيث تواجه المنصات الرقمية تحوّل المدّ

فـي جميـع أنحـاء العالم، وتضـع الحكومات أمام تحـدّي تنفيذ مكافحـة الاحتـكار الذي أضـرّ بالصحافة وجعلهـا تعيش عقودا ليست عادلة بحقها.

الصحافـة بعـد الانتخابات الأميركيـة، كما الديمقراطية أمام تحـدّي الثقـة، فالولايـات المتحدة طالما احتفـت بلقب «زعيمة العالـم الحـر». وكانـت الانتخابات مثالا حيـا للديمقراطية، وفق تعبيـر غيديـون راكمـان في صحيفة فاينانشـيال تايمـز. وكنا على موعد مع انتخابات نهايتها ليس لها مثيل. فالناس في كل العالم يتابعون عن كثب، ليس ما أسـفرت عنه صناديق الاقتراع، وإنما مؤشـرات الاحتجـاج والتشـكيك وانعـكاس ذلك على الشـارع كشـفت أن الديمقراطية الأميركية تعاني من المرض ليس بسـبب الترامبية وحدها. وذلك يعني اختبارا جديدا للصحافة وهي ترتقي المنصة للعودة إلى مكانتها المفترضة.

لا أسوأ من انحناء الصحافيين أمام الأقوياء

لـم تبـدأ المعركـة بهجـوم دونالـد ترامـب علـى الصحافة، هنـاك تاريـخ حافـل من العداء المسـتحكم للصحافـة في الدول الديمقراطية، وتاريخ من القمع والحجب والمصادرة والخضوع في الدول العربية.

لأن الرئيـس (...) عـادة كان قارئـا ممتازا لصحافة بلده، في زمـن صحافـي عربـي كان خاضعـا برمته للحكومـات قبل عصر الإنترنـت، فإنـه لا يتـردد عـن قمعهـا وإخضاعهـا أو يربت على كتفهـا، كان ذلـك بالأمـس عندما لم تكن تخلـو مكاتب الزعماء من الصحف.

استعدت ذلك التصور بينما أراقب الاهتمام النقدي المستمر والملفـت فـي الصحافـة الغربية بكتـاب هارولد هولـزر الجديد «الرؤساء بمواجهة الصحافة».

ثيمـة الكتـاب سـرد تاريخي مشـوق للمعـارك المتبادلة بين الصحافة الأميركية وثمانية عشـر رئيسـا من بين 45 رئيسـا وصلوا إلى البيت الأبيض.

أجمعت كل العروض المنشورة عن الكتاب على عدم انحياز هولزر لزملاء المهنة واكتفى بمسح بانورامي للمعارك التي شهدها

التاريخ الأميركي خلال قرنين بين الرؤساء والصحافة، مما يوفر فرصة للمهتمين في إيجاد معادل تاريخي بين ما حدث بالأمس مع العداء المستحكم الذي يبديه الرئيس الأميركي دونالد ترامب للصحافة التي لا يرى فيها غير بذرة شيطانية ومصدر للأخبار المزيفة.

ببساطة يمكن فهم هذا العداء التاريخي بين الرؤساء والصحافة، لأن كل الزعماء يعتبرون المعلومات قوة يجب إخفاؤها عن خصومهم ومنع تداولها أو كشفها للجمهور بذرائع شتى، ذلك ما حدث بين الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون والصحافي جورج مالبرونو عندما نشر معلومات عن لقاءات الرئيس في لبنان، لأن الرؤساء يعتقدون أن الصحافيين يسيئون قراءتها وإعادة تفسيرها. لذلك لم تبدأ المعركة بهجوم ترامب، هناك تاريخ حافل من العداء المستحكم للصحافة في الدول الديمقراطية، وتاريخ من القمع والحجب والمصادرة والخضوع في الدول العربية!

ينصحنا جاك شيفر كاتب العمود في صحيفة بوليتيكو الأميركية، وهو يقدم قراءة لكتاب «الرؤساء بمواجهة الصحافة» أن نتراجع خطوة إلى الوراء من أجل وقت أهدأ للتفكير بمجرد ارتفاع منسوب الحساسية حيال حرية التعبير، كلما انتزع ترامب أوراق اعتماد مراسل صحافي من البيت الأبيض، لمجرد أنه أطلق سؤالا جادا على الرئيس بحثا عن معلومة جديدة، أو عدم تردد الرئيس بتوجيه الإهانة الجارحة لصحافية على الهواء مباشرة، أو

كتابة تغريدات تصف الصحافة بمصدر مستمر للأخبار المزيفة، وأنها عدو الشعب الأول ويجب الانتقام منها.

هدأ من روعك! فقد مر على التاريخ الأميركي العشرات من الرؤساء بدرجات عداء مختلفة من نوعية ترامب بوصفه عدو الصحافة الأول، فحسب وصف كتاب هولزر، لم يكن ترامب العدو الأول للصحافة، وقد لا يكون ضمن المراكز الخمسة الأولى من هؤلاء الأعداء في البيت الأبيض.

من المفيد هنا استعادة ما كتبه بيل غرويسكين الأستاذ في كلية كولومبيا للصحافة، وهو ينصح المراسلين الصحافيين بأن عليهم عدم التردد لأن ترامب «مثل أي رئيس آخر» يحتاج إليهم أكثر مما يحتاجون إليه، على الرغم من صراخه المستمر عن «الأخبار الكاذبة» ومزاعم «عدو الشعب»، لأنه يولي اهتماما وثيقا بالصحافة، وخصوصا تلك التي يعتبرها خصما لدودا له، فترامب عندما يقف على المنصة وينظر إلى مجاميع المراسلين أمامه، فإن الشيء الوحيد الذي يقلقه هو الكراسي الفارغة.

لقد أصبح ترامب كيس اللكمات للصحافة المعاصرة، وبينما يستحق الكثير من الضربات فعلا، يقدم هولزر أدلة على أن باراك أوباما عامل الصحافة معاملة سيئة، لكنها تختلف عن طريقة ترامب المتغطرسة. فقد أخضع أوباما المراسلين لتحقيقات التسريبات الأكثر أهمية على الإطلاق وأخفى عمدا أعمال رئاسته عن التدقيق العام.

وبغض النظر عن طريقة ترامب المبتذلة والمتعجرفة، فإن

أوباما أخفى عداوته للصحافة بابتسامة بينما لم يخف ترامب امتعاضه من الصحافة أمام العالم.

هكذا يذكر لنا هذا الكتاب أن جون آدامز الرئيس الثاني للولايات المتحدة (1797-1801) وقع على أشد قوانين الفتنة المستخدمة لمقاضاة الصحافيين، والرئيس أبراهام لينكولن سجن العشرات من المحررين خلال الحرب الأهلية ومنع نشر أي رسائل رسمية متبادلة عبر التلغراف، وأوقف صحفا عن الإصدار وصادر مطابعها، بينما كانت لمسة الرئيس ثيودور روزفلت في عقوبة الصحافيين أخف إلى حد ما، عندما أوجد مكانا لنفي الصحافيين الذين يتسببون بإغضابه.

وأعاد الرئيس الثامن والعشرون وودرو ويلسون، خلال الحرب العالمية الأولى، أسوأ ميول لينكولن بفرض الرقابة على الصحافة واعتبارها عدوا.

لذلك يبدو السؤال حسب كتاب «الرؤساء بمواجهة الصحافة» ليس من أين نبدأ بذلك العداء، ولكن أين سننتهي. لأن الصحافيين لا يمكن أن يتخلوا عن الفكرة التاريخية التي وسمتهم بحراس الحقيقة ومراقبي فساد الحكومات، وعليهم دائما ألا يثقوا بما يقوله السياسيون وخصوصا الأقوياء منهم. وهذا لا يمنع من القول إن الصحافة أعطت على مر التاريخ للرؤساء بقدر ما حصلت عليه منهم. فهناك صحف دعمت بشكل معلن الزعماء على مختلف توجهاتهم، وهناك عدد أقل وقف بوجه سلطتهم وتقبل نتائج ذلك على قسوتها. وعلينا ألا ننسى مواقف صحف

ارتكبت أخطاء شنيعة ونشرت مزاعم غير صحيحة بحق رؤساء، ذلك هو التاريخ الذي لا يمكن لأحد أن يلقم فمه بحجر.

في النهاية يمكن لأي زميل صحافي عربي يمتلك الشجاعة أن يسرد لنا تجربة مفيدة في معاملة الرؤساء للصحافة، أنا شاهد مثلا على تجربة مهمة ومريرة في الصحافة العراقية عندما كان الرئيس الراحل صدام حسين يعطيها من وقته الكثير ويقرأها باهتمام، ليس من أجل الاحتفاء بها فقط، بل بإخضاعها!

لقد نمت كلتا المؤسستين الرئاسية والإعلامية بقوة على مدى العقود الماضية، وكلما ارتفع منسوب القوة لدى أحدهما، لا يبدي الطرف الآخر استعداده للتراجع.

صحيح أن العلاقة سيئة عبر التاريخ بين الصحافة والرؤساء، لكن لا يوجد أسوأ من أن يقدم الصحافيون فروض الولاء والطاعة للزعماء والانحناء أمام أخطائهم!

حجب مكبّر الصوت
أسقط الرئيس

لقد أمضى الرئيس الأميركي دونالد ترامب أسبوعا شاحبا هو الأول خلال فترة رئاسته، من دون أن يشعر بحكة في أصبعه!

قيمة ترامب الرئاسية تكمن في مكبر الصوت المليوني، الذي مارس فيه سطوة تلفزيون الواقع على الأميركيين والعالم. لكنه قضى الأسبوع الأخير في فترته الرئاسية، من دون حسابه على تويتر وفيسبوك. لقد جرّد من الرئاسة بمجرد إيقاف حساباته، بغض النظر عما ستؤول إليه حياته السياسية اللاحقة.

أتخيل ترامب يعيش الغضب على أشده، عندما حال المنع بينه وبين حساباته على مواقع التواصل، وهو استياء يفوق انزعاج ما ينتظره من أي قرار دستوري قد يتخذ بحقه في يوم ما. لقد وصف مطالبات إقالته بالكلام السخيف، لكنه لم يخف استياءه من حجب حساباته على تويتر وفيسبوك.

هذا يعني ببساطة أن سلطة الزعماء في مخاطبة الرأي العام صارت بيد شركات التكنولوجيا الكبرى. فتويتر أسقط الرئيس الأميركي قبل أن يتخذ الكونغرس أي قرار.

ليس ترامب وحده من يشعر بأن سلطته الرئاسية تكمن في حساباته على مواقع التواصل، بل أي رئيس اليوم لا يشعر بأهميته

وتأثيره على الرأي العام من دون مكبّر صوت يتمثل في مواقع التواصل، وهي في مجملها وسائل بمواصفات لا توفرها الوسائط الإعلامية التقليدية ممثلة بالصحافة والإذاعة والتلفزيون.

اليوم تويتر يتخذ قرارات سريعة وحاسمة تفوق سلطة المحاكم والحكومات، وهذا يعني أنه ليس مجرد منصة للتواصل الاجتماعي وفق مات هانكوك وزير الصحة البريطاني، الذي عبر عن هذا الرأي بوصفه وزيرا سابقا للثقافة، مطالبا بتشديد اللوائح الخاصة بشركات التواصل الاجتماعي.

بينما اعتبر ترامب جونيور النجل الأكبر للرئيس الأميركي، أن تجريد والده من حساباته على مواقع التواصل يؤكد بأننا نعيش زمن جورج أورويل 1984. فحرية التعبير لم تعد موجودة في أميركا، وفق جونيور.

مثل هذا الكلام يعيد الحديث عن «أسطورة البراءة الأميركية»! وكأن سلوك وخطاب ترامب وحدهما من فضّ تلك البراءة.

باستثناء الملايين من محبي ترامب، الذين عبروا عن استيائهم من فقدان التواصل مع نجمهم الرئاسي، أعتقد أن السلطات الأمنية والحكومية في العالم تنظر إلى قرار شركتي فيسبوك وتويتر بقلق متعلق بسلطة اتخاذ القرار نفسه، وبيد من يجب أن تكون.

الاستياء الذي عبرت عنه حكومات غربية، ليس متعلقا بحسابات ترامب، بل بالمعايير التي تريد أن تضعها بنفسها على شركات التكنولوجيا العملاقة.

لذلـك يتسـاءلون اليوم: بيد من قـرارات الإقصاء والحجب والمنع، هل شـركات التكنولوجيا الكبرى فوق القوانين وسـلطة القضاء والدولة. هذا يفسر لنا حماسة مات هانكوك.

لقد منح تويتر الرئيس الأميركي منفذا فريدا للتعبير عن نفسه كأقوى رجل في العالم، من دون قيود بروتوكول الرئاسة. وكان يفـرض شـروطه الخاصـة على أي حوار يريـده مع كل الأطراف داخل وخارج الولايات المتحدة، بتغريدة مقتضبة.

فضّـل ترامـب حسـابه الشـخصي على تويتر وليس حسـابه الرسـمي، للتعبير عن أفكاره. لقد فهم قوة بناء خطابه الشـخصي وإبقائـه منفصـلا عـن واجباتـه الرسـمية كرئيس. اسـتخدم تويتر كسـلاح ضـد منافسـيه، ومسـدس مرخـص لإطـلاق النـار على مسـاعديه ووزراء فـي الحكومـة وأعضـاء فـي الكونغرس، وفي حقيقة الأمر كان تويتر قنبلة يدوية يمكن أن يلقيها على المشرعين الذين يتجاوزونه والصحف التي تثير استياءه، والأهم من ذلك كان وسيلة لبث الحماس في مناصريه الشعبويين.

وفـي كل ذلـك، قـدم ترامب نفسـه كمصـدر وحيد للحقيقة بعدما شيطن وسائل الإعلام واعتبرها مصدرا للأخبار الزائفة.

إلا أن خبراء وسـائل الإعلام لا يرون قرار تويتر وفيسـبوك قبـل اثنـي عشـر يوما مـن مغادرة ترامب البيـت الأبيض، صحوة ضمير مفاجئة لوادي السيلكون.

قل ما تريد عن ترامب، لكن شركات التكنولوجيا استفادت منه كمصدر باهر لزيادة أموال شباك التذاكر لمنتوجاتها، وروجت

لصناعتها عبر استخدام الرئيس الأميركي المهووس لمنصاتها.

لسنوات، كان كبار المسؤولين التنفيذيين في شركات التواصل الاجتماعي يعاملون الرئيس ترامب بقفازات الأطفال الناعمة، خوفا من إثارة رد فعل عنيف من الرئيس وحلفائه، على الرغم من انتهاك قواعدهم مرارا وتكرارا.

ومع كل انتهاك كان يمارسه ترامب، يقابل بخطب غامضة من جاك دورسي ومارك زوكربيرغ، عن حرية التعبير ووضع علامات تحذير ضعيفة على منشوراته لتبرير تقاعسهم.

فعلى موقع تويتر وحده، ارتفع عدد متابعي ترامب على مدى السنوات الأربع التي قضاها في المنصب ستة أضعاف ليصل إلى 88 مليونا. كجزء من الصفقة التي أبرمت معه، بعد أن سمحوا له بتجاوز مدونة القيم المعلنة من قبلهم.

وتعبر المحامية كيت روان من اتحاد الحريات المدنية الأميركي، عن تفهما تعليق حساب ترامب بشكل دائم، لكنها لا تخفي قلقها من أن تمتلك شركات التكنولوجيا الكبرى وحدها السلطة المطلقة لإزالة الأشخاص من المنصات، التي أصبحت لا غنى عنها لخطاب المليارات من الأشخاص.

يمكن لترامب أن يجد بدائل لإيصال خطابه لجمهوره، لكن ماذا عن النشطاء والمدونين، الذين يتم حظرهم لمجرد أنهم يقومون بكشف ممارسات فظيعة في بلدانهم.

وسواء استعاد السيد ترامب حساباته أم لا أو أسس منصته الخاصة على الإنترنت، فمن الواضح أنه قد عرّض بالفعل للخطر

أحد أصوله الإعلامية المعاصرة الأكثر قيمة، فقدرته على التنمّر وجلد الآخر عبر تلك المنصات، منحته مكانا واسـعا يتابعه من خلاله مئة مليون مستخدم في كل دول العالم.

هل أنتم مستعدون لما بعد ترامب

ماذا سيحصل بعد خروج ترامب من البيت الأبيض؟

ليس من مهام الصحافة اختبار القراء، لكن نيويورك تايمز أطلقت سؤالا على قرائها وكأنها تضعهم في موضع اختبار، عما إذا كان الأميركيون مستعدين فعلا لحياة سياسية من دون دونالد ترامب!

نفس السؤال كان يتداوله العراقيون في تسعينات القرن الماضي، ماذا تعني حياتهم من دون صدام حسين! الليبيون أعادوا على أنفسهم السؤال نفسه عن دولة من دون معمر القذافي.

اختلفت إجابات العراقيين، وكان أغلبها تعبيرا عن الانفعال والتهور والغضب والحقد والضغينة، لكن بمقدورنا اليوم جمعها في بوتقة واحدة لنجعل منها درسا تاريخيا مفيدا. توجد اليوم نسبة متزايدة من العراقيين يعدون ظلمه نوعا من العدل!

نفس السؤال يجعل الليبيين يدورون في حلقة مفرغة، لا يوجد أسوأ من القذافي، لكن لا أسوأ من حياتهم بعده!

قد يبدو كل ذلك وكأنه حلم باهظ الثمن، لكل من العراقيين والليبيين بعد السقوط الحر الذي يعيشه بلداهما.

على نفس المستوى، يكاد جيل كامل من الرومانيين

يتفقـون اليـوم علـى إجابة متقاربـة، عندما يعيدون على أنفسـهم صيغة السـؤال ماذا بعد تشاوتشيسـكو؟ بينما الحنين غالب على اليوغسلافيين لعصر جوزيب بروز تيتو.

بيـد أن اسـتعادة عصـر الدكتاتوريـن لا يبدو لي تطفلا على الديمقراطية الأميركية، فالأميركيون أنفسـهم يعيشـون اليوم زمن التعديلات في كل شيء بعد أربع سنوات من رئاسة ترامب.

وفي كل ذلك ليس هدفي - في هذا المقال - التهكم على أميـركا، فهـي أقـوى مـن تهكم العالـم برمته، لكـن ترامب عرّى غطرستها وجعل نخبها تطالب بمراجعة المفهوم الأميركي، بعد أن انكسـر الحلم، واكتشـف العالم أن الديمقراطية تمرض أيضا ولا تصاب بنزلة برد فقط. فأربعة أعوام من حكم ترامب، يتعين على جو بايدن الذي ليس غريبا على البدايات الصعبة، ترجمة كل ذلك إلى حكم في لحظة موجعة في تاريخ الولايات المتحدة.

ومـع أننـا جميعا لا نعرف ماذا سـيحصل مـع بايدن، دعونا نتأمل اسـتعدادات الأميركيين على تقبل حياة سياسـية بعد أربع سـنوات سـامة ومتناقضة دب فيها الشـقاق داخل المجتمع، علّنا نجد مشتركا سياسيا معهم يعيد صياغة العلاقة المريرة بين الحاكم والمحكوم في العالم العربي. أجمع غالبيتهم على مطالبة البيت الأبيض والكونغرس ووسائل الإعلام بإجراء تعديلات كبيرة.

وعبر أحد المشاركين عن أمله مثل الكثير من الأميركيين في التطلع إلى الأمام وأن يكون إيجابيا، من دون أن يخفي حنينه إلى الخطـاب الأخيـر لميلانيا ترامب الـذي عنونته بـ«كن الأفضل»!

بينما فضّل آخر أن يتجاهل كل ما يمت بصلة لزوجة ترامب وإن كانت تتجاهل «شرور» زوجها.

تهكّـم آخـر فـي مطالبـة أفـراد عائلـة ترامـب للتنافـس فـي برنامج لتلفزيون الواقع كي يصوت عليهم الأميركيون الممزقون والباحثون عن راحة البال!

العالم يريد استعادة الحقيقة

عندما تسأل أي أميركي عما ينتظره بعد الانتخابات الرئاسية، فإنه سيفكر مباشرة بالحقيقة المفقودة، أنه مثل الملايين على هذا الكوكب يريدون استعادتها، فهزيمة الرئيس دونالد ترامب كانت فرصة مثالية للتفكير في الحقيقة ليس للأميركيين وحدهم، العالم برمته يشعر أن الحقائق قد سُلبت ثم استبدلت، تضافرت رؤوس الأموال والشركات التكنولوجية الكبرى والحكومات ورجال الدين على صناعة ما بعد الحقيقة وتقسيم المجتمعات وفقا لتباين النقائض بوصفها حقائق مختلفة، وتغييب مقصود للحقيقة نفسها.

دعك من ترامب ما بعد اليوم، مع أنه سيبقى فاصلة مهمة في التاريخ المعاصر لما بعد الحقيقة ولن يغادر أروقته بسهولة، لكنه تسبب في صدمة إعادة تعريف النقائض بوصفها حقائق.

لقد حصل ترامب بمجرد خسارته الانتخابات على صفقة إصدار كتب وبرامج وأعمال تلفزيونية عن تجربته الرئاسية تقدر قيمتها بمئة مليون دولار. بينما ترك المجتمعات تبحث عمن يضع الحلول لإنقاذها من الجو السام للتزييف في وسائل الإعلام الرقمية والتلفزيونات على حد سواء.

أو بتعبير الصحافي الأميركي توماس فريدمان وهو يتأمل

مستقبل بلاده بعد هزيمة ترامب وبقاء الترامبية، بأن الحقيقة وحدها هي القادرة على إنقاذ ديمقراطيتنا بعد أن عملت رئاسة ترامب على تطبيع الكذب بشكل خطير وشيطنة الصحافة ونعتها بالبذرة السامة.

ترامب لم يحرر نفسه من الحقيقة فحسب، بل حرر الآخرين ليروجوا لأكاذيبهم عن وسائل الإعلام المسؤولة وعالية الحساسية من أجل جني الفوائد السياسية.

لم يفقد فريدمان التهكم بشأن مستقبل الحقيقة بالتساؤل القائل «أليس الكذب إحدى الوصايا العشر؟» لكن قيم الصحافة المثالية ترفض أن نشهد بالزور! أو وفق حكمة رئيس تحرير الغارديان سي بي سكوت التي قالها قبل مئة عام «من الجيد أن نكون صرحاء مع القراء، لكن الأفضل من ذلك أن نكون عادلين»، مشددا على أن حرية الكلام متاحة للجميع، لكن الحقائق يجب أن تبقى مقدسة بالنسبة إلينا كصحافيين.

بيد أن وسائل الإعلام التي لا تشارك في نشر الحقائق لا يمكنها هزيمة وباء كورونا مثلا، ولا يمكنها الدفاع عن حقوق المجتمعات ومحاسبة الحكومات والإسهام في حرية تبادل المعلومات.

وهكذا تتخذ الحرب من أجل الحقيقة من الخلاف السام سببا بعد أن أربك العالم وغير نظرة الناس إلى وسائل الإعلام، هي حرب للحفاظ على مثالية الصحافة مثلما هي معركة الديمقراطية الحقيقية.

ليس المُزيفون وحدهم من يشـعرون أن الأكاذيب وصلت إلى منتصف الطريق، هناك ماكنة سياسية ودينية تدفع إلى النهاية مـن أجـل ذلك، بينما ما زالت الحقائق تتحرك بخطوتها الأولى، لسوء الحظ.

لقـد تلـوث العالـم بأكاذيـب السياسـيين ورجـال الديـن والحكومـات والشـركات... مـن أجـل ألا يعـرف النـاس ما هو الصحيح، وإذا لا يوجد ما هو صحيح يمكن لكل شيء أن يكون كاذبـا! ويصبـح مـن المسـتحيل الحفاظ على مجتمـع حر عندما يشـعر السياسـيون ووسـائل الإعلام بالحرية في نشـر الأكاذيب دون محاسبة.

مع ذلك ليس من السهولة أن يتفق الجمهور على ما يمكن أن يسـمى بالحقائق، وهذا لا يعني أنه لا توجد حقائق، لكننا لا نستطيع أن نتفق على ماهية تلك الحقائق بوجود هذا الكمّ الهائل من المُرسِلين. وعندما لا يكون هناك توافق في الآراء بشأن حقيقة ما، ولم يعد بإمكان وسـائل الإعلام كمنصات تلقى قبول الرأي العام لتحقيق ذلك، فهذا يعني أننا نقترب من الفوضى.

يقول ديفيد شبلر مدير مكتب صحيفة نيويورك تايمز السابق في موسـكو، خلال سـنوات الحرب الباردة «لا تنجح الأكاذيب مـا لـم يتـم تصديقهـا، وقد أثبـت ما يقارب من نصـف الجمهور الأميركي أنه سـاذج بشـكل ملحوظ». لنا أن نعكس هذا الكلام علـى جمهورنـا العربـي وهـو يصدق خطـاب الخرافـة التاريخية التـي تديره وسـائل إعـلام حزبية وطائفية لإشـاعة ثقافة القطيع،

في مهرجان قائم ومستمر لتغييب التفكير.

يختصـر علينـا فريدمان ذلك بالقول «دون الحقيقة لا يوجد طريق متفق عليه للمضي قدما، ودون الثقة لا توجد طريقة للسير في هذا الطريق معا». وتلك مهمة جوهرية لوسائل الإعلام. ويعبر عـن اعتقـاده بالقـول إن كل واحد منا لديه جهاز إنذار خاص به، إلا أن تصديـق الأكاذيـب علـى سـذاجة بعضهـا يبـدو كما لو أن بطارية جهاز الإنذار قد نفدت، أو أهمل بعضنا شحنها بالمعرفة بشكل مستمر.

ذلـك مـا دفع كاثرين فاينر رئيسـة تحريـر صحيفة الغارديان البريطانية إلى التحذير من انتشار هذا النهج الملتبس حول مفهوم الحقيقـة، لأنـه يوحـي بأننا كصحافيين في خضـم تغيير جوهري فـي قيـم الصحافـة وتحوّلهـا إلى مصدر تجاري اسـتهلاكي بدلا مـن تعزيـز الروابـط الاجتماعيـة والديمقراطيـة، والارتقاء بوعي الجمهور والحد من الفساد السياسي.

غيـاب الحقيقـة عـن وسـائل الإعـلام يقود إلى منـع اختيار المجتمعات لخطاباتها وتنظيم أنفسـها في ديمقراطية جديدة من الأفـكار والمعلومـات، وتغيير مفاهيم السـلطة، وإطلاق الإبداع الفردي، ومقاومة خنق حرية التعبير.

لذلـك يقتـرح فريدمـان أن تتبنى وسـائل الإعلام ما أسـماه تطرفا إلى حد ما بـ«قاعدة ترامب»، فليس ترامب الكاذب الوحيد بين الزعماء، هناك ما هو أكذب منه في عالمنا العربي!

ويطالـب فريدمـان وسـائل الإعـلام بعـدم التعامـل مع أي

مسؤول ثبت أنه أدلى بتصريح زائف وخال من الحقائق، ويرى أن يكون هذا هو الوضع الطبيعي الجديد الذي يجعل السياسيين يصابون بالذعر قبل أن يقدموا على إعلان الأكاذيب على الجمهور. عليهم أن يعرفوا أن الصحافيين جاهزون على مطالبتهم بحقيقة ما يزعمون قبل فوات الأوان.

نحن بحاجة إلى القتال من أجل الحقيقة، وعدم التردد في الوقوف بوجه قوى التضليل. لأنها معركتنا جميعا من أجل الحرية.

هل جعلت الصحافة العالم أفضل؟

عندما يُنظر إلى الصحافيين بأنهم شكل آخر للعدالة، فلأن الصحافة في حقيقتها تحاول أن تجعل العالم مكانا أفضل، وليست مجرد وصف للعالم، بل يبدو العالم فقيرا جدا من دونها! منذ أن قال الروائي فيكتور هيغو إن مبدأ حرية الصحافة لا يقل أهمية عن مبدأ الاقتراع العام، كلاهما سراج للحكومة، وتقويض أحدهما تقويض للآخر.

مع ذلك تتصاعد أسئلة مخيفة في عصر الرئيس الأميركي دونالد ترامب عما إذا كانت الصحافة قد جعلت حقا العالم أفضل؟ وهل هي فعلا شكل آخر من العدالة. بينما يواصل الرئيس الأميركي توزيع جوائز الإخبار الكاذبة على وسائل الإعلام مثل «سي إن إن» ونيويورك تايمز وواشنطن بوست، بلغة ستالينية تهكمية.

نحن ندرك مثلما أدرك أوسكار وايلد من قبل بأن الرئيس في الولايات المتحدة، يحكم أربع سنوات، بينما تحكم الصحافة إلى الأبد. ولا يبدو من العدل تسويق فكرة معركة الصحافة مع ترامب بأنها من تحدد المصير، معركة الصحافة الحقيقية مع نفسها وطبيعة محتواها من أجل التغيير وإعادة تنظيم المجتمع لنفسه، وإرغام الحكومات على قبول حرية التعبير بنفس القدر من

الوقوف بوجه الكراهية والطائفية الدينية والعنصرية والتخلّف.

لقد نال فيلم «ذا بوست» للمخرج الأميركي ستيفن سبيلبرغ الثناء باعتباره تذكرة جاءت في الوقت المناسب بحرية الصحافة والديمقراطية والوشايات والأكاذيب.

لهذا ترى باربي زيليزر صاحبة كتاب «كيف تكون الصحافة» إذا كان عصـر ترامـب تحديـا لمهنـة الصحافة فهـو كذلك فرصة عظيمة للتغيير.

فـي مسـرحية اسـمها «الحبـر» تتحـدث عـن الأيـام الأولى للصحيفة الشـعبية البريطانية «ذا صن» وتُروى بشـكل أساسي من خـلال العلاقـة ما بيـن إمبراطور الإعلام روبيرت مردوخ ولاري لامب، أول رئيس تحرير لديه.

يخاطب مردوخ لامب قائلا «إن السلطة تحلّ مكان السلطة بنفسـها. يمكنـك إمـا الوقـوف إلـى الجانـب الآخر مـن النافذة، وتطرق، تطرق، تطرق، حتى يسـمح لك بالدخول، وإما يمكنك تشكيل خط جديد للصعود».

وكمـا يبـدو أن مـردوخ أراد إيجـاد مسـار جديـد للصعـود والارتقـاء، وذلـك ما يجعل من جيل بيتر بريسـتون رئيس تحرير صحيفة الغارديان الراحل، قادة رفض صحافي لإقامة علاقة غير متوازنة مع السياسيين من أجل الوصول، بل يجتهدون من أجل العمل ومن أجل الهدف الأول للصحافة وهو جعل العالم أفضل.

كان الصحافيـون المخلصـون فـي أزمان مضـت وما زالت نسـبة كبيـرة منهـم يعملـون مـن أجل هـذا الهدف العـادل وليس

أي شـيء سـواه، من الصعب أن نجمع على أنهم نجحوا بشـكل نهائي، لكنهم بالتأكيد عملوا من أجل ذلك ولم يبالوا بتهديدات الحكومـات. ويبـدو مـن المفيد أن نسـتذكر مثل هؤلاء في وقت يجعـل ترامـب ومن يسـير فـي طريقه من الصحافـة وكأنها «نبت شـيطاني» لا تحـوي غيـر الأكاذيـب والتدليـس والخضوع الفج لمصدر الأموال والسكوت عن الفساد، ولسوء الحظ ثمة صحافة منتشرة اليوم وظيفتها تلميع الفساد سواء كان مصدره رجال الدين أو السياسة.

انتشـار النمـاذج الباليـة لا يجعل الهدف الأسـمى للصحافة بأن يكون العالم أفضل.

يستخلص كين فيشر الرئيس المؤسس لشركة للاستثمارات في أوروبا، الدرس الكبير مما يسـمى حادثة الدمار التكنولوجي أو السياسـي بالقول «عندما تصبح وسـائل الإعلام مشغولة تماما ولا شأن لها سوى الحديث عن زاوية حديثة لا تشتمل على أي تحسـين، سـيكون من المحتمل جدا أن تكون هذه مرحلة عابرة قصيرة الأجل أكثر من كونها اتجاها عاما طويل الأجل».

وبذلك لا يكون الحال أفضل عندما لا تكون عين الصحافة قـد وصلـت حتى صناديق التحوّط المالي والسياسـي، وما يفكر فيه السياسيون وليس فقط ما يعلنون أمام الكاميرات.

لا أريد هنا تسويق التعاطف مع الصحافة من أجل إبعاد فكرة «النبتـة الشـيطانية» لكنني أرى أن الصحافـة تتحمّل الجزء الأكبر من الاتهام عندما لا تكون متسقة مع مبادئها، وعاجزة عن الدفاع

عـن النـاس حيال جبروت الحكومات، والتواطؤ مع السياسـيين الفاسـدين، أو أن تصبح هامشـا ذليلا للخطاب المتخلّف لرجال الدين، ذلك يعني باختصار أن الصحافة لم تجعل العالم أفضل، إن لم تكن قد ساهمت بجعله أسوأ.

الصحافـة فـي جوهرهـا تـدرك أن لا خيـار أمام السياسـيين غيـر اللجـوء إليها، لهـذا يبقى هدفهـم الأول إخضاعها لنواياهم غيـر العادلـة، مـن أجـل تمريـر ما يريدونـه حتى في أهـم معاقل الديمقراطية. فعندما ارتفع الحلم السياسي لجيرهارد شرودر من أجل أن يكون المستشـار الألماني، قال «أنا بحاجة إلى صحيفة بيلـد يـوم الأحـد من أجـل أن أتولى الحكم» ولـم تقل الصحيفة الأكثـر تـداولا فـي ألمانيـا، أنهـا بحاجـة إلى شـرودر لتبقى أكثر تداولا.

فـي الماضـي، عملت البلـدان الديمقراطية الغربية على بناء جـدران بيـن الكنيسـة والدولـة. والجدار الذي تحتـاج الصحافة إلـى تشـييده اليـوم هـو الـذي يمكـن أن يفصـل الحكومات عن الفســاد بشـكل نهائي ومنع خضوع الدولة لأمزجة رجال الدين وإشاعة الخرافة ونقل تقاليد المسجد إلى الدولة من أجل تجهيل المجتمع، عندئذ سيكون من الممكن الإجابة بتفاؤل عن سؤال: هل جعلت الصحافة العالم أفضل؟